ساعد المجمع العلمي العراقي على نشر هذا الكتاب

عثمان الموصلي

الموسيقار الشاعر المتصوف

تاليف

الدكتور عادل البكري

١٩٦٦

مطبعة العاني - بغداد

ساعد المجمع العلمي العراقي على نشر هذا الكتاب

عثمان الموصلي

الموسيقار الشاعر المتصوف

تأليف
الدكتور عادل البكري

١٩٦٦
مطبعة العاني – بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطّاب

« الموصل الحدباء ، مدينة مشهورة عظيمة ، احدى قواعد بلاد الاسلام ، قليلة النظير كِبراً وعِظماً وكثرة خلق وسعة رُقْعَة ؛ فهي محطّ رحال الركبان ، ومنها يُقصد الى جميع البلدان ؛ فهي باب العراق ، ومفتاح خُراسان ، ومنها يُقصد الى أذْرَبِيجان ؛ وكثيراً ما سمعت أنّ بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نَيْسابُور لأنها باب الشرق ، ودمشق لأنها باب الغرب ، والموصل ، لان القاصد الى الجهتين قلّ ما لا يمر بها . وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل : وصلت بين دجلة والفرات » .

ذلك بعض ما قاله عن الموصل ياقوت الحموي المتوفى سنة (٦٢٦هـ) في كتابه الخالد : معجم البلدان[١] .

والموصل كانت عربية قبل الفتح الاسلامي ، فقد كانت قصبة الجزيرة[٢] التي تشتمل على ديار بكر ومُضَر وربيعة[٣] ، ومنها قبائل تغلب واياد والنمر[٣] ؛ وقد فتحها في الصدر الأول للاسلام وفي عهد عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه رِبْعي بن الأَفْكَل العنزي سنة ست عشرة

---

(١) معجم البلدان – شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي – مطبعة السعادة – القاهرة – الطبعة الاولى – ١٣٢٣هـ – (٨/ ١٩٥ – ١٩٦) .

(٢) الجزيرة : سميت الجزيرة لانها بين دجلة والفرات . انظر حدودها في المسالك والممالك للاصطخري ص (٥٠) – مطابع دار القلم – القاهرة – ١٣٨١هـ .

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد – زكريا بن محمد بن محمود القزويني – مطابع صادر وبيروت – بيروت – ١٣٨٠هـ – ص (٣٥١) .

الهجرية[١] (٦٣٧م) ، وكان أول من اختطّها ومصّرَها وأسكنها العرب المسلمين من الفاتحين هو عَرْفَجَةَ بن هَرْثَمَةَ البَارِقيّ وذلك في أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه فقد أمره عثمان أن يتوجّه من فارس الى الموصل على رأس أربعة آلاف رجل من الأزد وطيء وكندة وعبدالقيس ، وكان قد بعثه عثمان يغيرُ على أهل فارس ، فسكن الموصل هذا الجيش[١] وكانت قبله عربية فيها الحِصْن وبعض البِيَع والبيوت[٢] .

ومنذ فتح العرب المسلمون مدينة الموصل الحدباء وسكنوها ، لم يستطع أحد من غير العرب المسلمين دخولها عنوة ، كما لم يقتحمها على أهلها أبداً عدوٌ (خارجي) منذ كان الفتح الاسلامي حتى اليوم ، بل صمدت هذه المدينة البطلة بصبر وشجاعة وعناد دائماً أمام الغزاة تدافع عن أصلها العربي العريق ، وعن عقيدتها الاسلامية السمحاء .

لقد بهرت الموصل بصمودها البطولي العالم كلّه أمام المدّ الأحمر الجارف سنة ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) ، ولم يكن عدوّها في هذه المرّة من (الخارج) لتعرف كيف تصدّه كما صدّت كلّ غزو خارجي من قبلُ ، ولكنّ عدوّها في هذه المرّة كان من (الداخل) ، وما أصعب قتالَ العدو الداخلي وما أشقّه ، فقدّمت الموصل الشهداء والضحايا ، وكان هُتاف الشهداء والضحايا وهم يُساقون الى الموت ويُقتلون صبراً : « نموت فداء للعرب والاسلام » ؛ فكانت تلك المعركة الحاسمة بحق – على الرغم من فداحة خسائرها بالأرواح والأموال ، هي معركة الشرق الأوسط كلّه على الشعوبية ؛ وقد ظهرت بعض نتائج تلك المعركة الحاسمة في المدى القريب

---

(١) تاريخ الامم والملوك – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٣٥٧هـ – (١٤٢/٣) .

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة – عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري المعروف بابن الاثير – المطبعة الاسلامية – طهران – ١٣٧٧هـ (٤٠١/٣) .

(٣) فتوح البلدان – أبو الحسن البلاذري – مطبعة السعادة – القاهرة – ١٩٥٩م – ص (٣٢٧) .

حكماً قريباً من العروبة والاسلام ، وما سيظهر من نتائجها البعيدة أكثر وأهمّ وأخطر .

انّ دفاع الموصل الحدباء عن عروبتها ، هو دفاع عن أصلها العريق الممتدّة جذوره التاريخية الى عشرات القرون ، فأهل الموصل عرب أقحاح وليسوا عرباً من قوارير ، لذلك لا استسلام لأعداء العروبة ودون ذلك خرط القتاد .

ودفاع الموصل الحدباء عن اسلامها ، هو دفاع عن عقيدتها الأصيلة الممتدة جذورها التاريخية الى أربعة عشر قرناً خلت ، فأهل الموصل مسلمون حقاً وليسوا مسلمين جغرافيين ، لذلك لا استسلام لاعداء الاسلام ودون ذلك ما تقدّمه من ضحايا وشهداء .

والعروبة والاسلام يجريان مجرى الدم في عروق أهل الموصل ، فهم يفهمون العروبةَ جسماً والاسلامَ روحه ، والجسم بدون روح في عداد الأموات .

لقد جاهدت هذه المدينة العريقة جهادها الأصغر بأرواح أبنائها وأموالهم ، فأمدّت بعد الاسلام جيوش الفتح الاسلامي في أيام الفتح ، وجيوش المدافعين عن دار الاسلام من بعده ، بسيل جارف من قادة الفتح الاسلامي وجنوده ، وكان لها أثر أيْ أثر في الفتح وفي حماية الفتح ، فكانت القاعدة الامامية لفتح أذربيجان والأنضول والجزيرة ، وكانت القاعدة المتقدمة لحماية تلك الفتوح .

ولكن هذه المدينة كان لها نوع آخر من الجهاد لا يقلّ أهمية عن جهادها الأصغر ، ذلك هو جهادها الأكبر بما قدّمته للتراث العربي الاسلامي من قادة الفكر وجنوده ، وكانت ولا تزال وستبقى حصناً للتراث العربي الاسلامي بمدارسها وعلمائها وتلاميذها ومكتباتها ؛ « والذين ينسبون للموصل من أهل العلم أكثر من أن يحصوا »[1] .

---

(١) معجم البلدان (١٩٧/٨) .

أيّ جلال مدهش لأمجاد هذه المدينة ؟! أي جهاد مذهل لأبنائها !؟
أي تراث عريق لسكانها !؟ أي مجدٍ مضمّخ بالنور لأهلها؟!

ان التاريخ البعيد والقريب خير شاهد على أمجادها ٠

ولعلّ الملا عثمان الموصلي كان من بين قوافل قادة الفكر الساربة في طيّات التاريخ متّصلة متعاقبة ، تلك القوافل التي قدّمتهم الموصل الحدباء في جهادها الأكبر من أجل الحفاظ على التراث العربي الاسلامي العظيم ، وكان حرياً بهذه الشخصية التي جمعت المجد من أطرافه فناً وعلماً وأدباً أن يعفى عليها الزمن ، على الرغم من عبقريتها المتعدّدة الجوانب ، والتي لا نزال نلمس آثارها في العراق وفي مصر وفي البلاد العربية الأخرى ، لو لم يتدارك سيرته الأخ الدكتور عادل البكري بالبحث والتنقيب ، فشغلت من وقته زمناً طويلاً ، واستنفدت من جهده طاقات كثيرة ، حتى أخرج للناس هذا الكتاب ٠

كان الملا عثمان فناناً أصيلاً ، ومن تلاميذه في مصر عبده الحمولي وسيد درويش ، وهما مَنْ هما فناً أصيلاً ٠

وكان من أشهر مقرئي القرآن الكريم ، ولايزال تلاميذه في العراق وفي مصر وفي الأنضول وكل فخرهم في الدنيا أنّهم من تلاميذه ٠

وكان متصوفاً ، وكان شاعراً ، وكان كاتباً ٠٠٠

وكان مخلصاً لوطنه يكافح الاستعمار بأشكاله ، وقد نفاه مرة والي بغداد تقي الدين باشا الى سيواس ، وقد شارك في ثورة العشرين في العراق ، وقاد المظاهرات الصاخبة وعقد الاجتماعات للمطالبة بجلاء الانكليز يوم كان الاحتلال البريطاني في عنفوانه ٠

ولعلّ الناحية الوطنية من حياة الملا عثمان الموصلي ، بعض ما شدّ الدكتور البكرى اليه ودفعه الى البحث الطويل عن جمع سيرته في هذا الكتاب ٠

شكراً للدكتور البكري على جهوده المثمرة في بحثه المفيد ، وأرجو له التوفيق والسداد في بحوثه الاخرى ، والله الموفق والمعين ٠



الشيخ عثمان الموصلي بعد انتسابه للمولوية

وفي الزاوية صورته في شبابه وهو بملابس علماء الدين



مُقَدّمَة المؤُلِفْ

اشتهرت الموصل منذ القدم بانجابها لعدد من الادباء والشعراء والنوابغ الذين ساهموا في حمل مشعل الحضارة العربية دهورا طويلة ، حتى اذا أتى أمر الله ، ودالت دولة العرب وقضى بمحكم مشيئته ان يتفرقوا شعوبا واقطارا ، ذكروا حضارتهم الاولى ، وذكروا رجال الفكر والعلم والادب من أجدادهم ، يشدهم الى الماضي حنين الذكرى ويستنهضهم في حاضرهم الامل باعادة المجد العربي مترسمين خطى اولئك الذين مضوا ٠

وقد كتب ابناء الموصل عن مدينتهم كثيرا ، ودونوا تاريخها في مجلدات ضخمة ولا يزالون يكتبون عنها بكل فخر واعتزاز ٠ وكانت نشوة الذكرى بابن الموصل العبقري الملا عثمان الموصلي قريبة من الاذهان فعقدت العزم على الكتابة عنه كموسيقار موصلي ساهم في رفع شأن الموسيقى في بلاده وكنت بذلك اتوخى ابراز المآثر الفنية التي تحفل بها هذه المدينة والتي تتصف بالاصالة والقدم ٠

ولو كان الملا عثمان رجل موسيقى وفن فحسب لترددت قبل ان أكتب شيئا عنه ٠ ولكنه كان دائرة معارف كاملة وكان اعجوبة نادرة اخرجتها الموصل ، اذ هى انبتته نباتا حسنا واحتضنته رضيعا وغلاما بين جدرانها الحجرية المائلة وقناطرها المعقودة فوق ازقتها الملتوية ، حتى اذا اكتمل شابا دفعت به الى بلاد المشرق لتقول هذا هو ابني النابغة ٠

في الحقيقة لقد جرّني الملا عثمان الى الكتابة عنه جرا ، فقد وجدت اسمه على ألسنة الموسيقيين وهواة الموشحات ، ووجدته مترددا في كتب الشعر والادب ، وسمعت ذكره في المجالس والمقاهي ، وقرأت عنه في تواريخ الدولة العثمانية ، والتقيت به مرة في صفحة من صفحات مجلة انكليزية ، ونظرت اليه فوجدته أعمى يتلمس طريقه بعصاه ٠ ثم وجدت أحد الادباء المشتغلين بتراجم الناس في دمشق يطلق عليه لقباً غريباً يستلفت النظر وهو الضرير الجبار ، ووجدت أيضا ان هذا الاديب رشحه في استفتاء صحفي نشرته جريدة الايام الدمشقية ومجلة صوت سوريا (قبل عام ١٩٥٤) ليكون أعظم شاعر متفنن وموسيقار مؤلف ملحن ، وعالم فقيه خطيب انجبته الامة العربية منذ العهد الاموي الى الآن ، مقدما اياه على اسحق الموصلي والخليل ابن أحمد والفيلسوف الكندي الذي الّف في الموسيقى كتبا كثيرة ، وعلى الفارابي وابن هيثم وغيرهم لان هؤلاء برزوا في ناحية أو اثنتين بينما نبغ هو في عدة نواح من المعرفة والفن والذكاء ٠ وفضلا عن ذلك فقد كان أعمى وكانوا هم مبصرين ٠

وكثير أولئك الذين فضلوه في الموسيقى والغناء على عبده الحمولي وسيد درويش والبطش وأبي خليل القباني وداود حسني وغيرهم ٠ وفي القراءة فضلوه على الشيخ محمد رفعة شيخ قراء مصر ومن جاء بعده من

القراء المصريين · وفي الشعر فضلوه على أقرانه من شعراء الدولة العثمانية ·

وعلى ذكر الموسيقى وبراعة الملا عثمان الموصلي فيها ، يجدر بنا أن نشير الى ان التاريخ لم يذكر الا عددا قليلا جدا من مشاهير الموسيقيين من يستطيع التمييز بين اختلاف أحد الاصوات بالنسبة لغيره اذا حدث خلل في وتر واحد فقط بمجرد سماعه ، ومن هؤلاء الملا عثمان كما سنرى في احدى نوادره · ومن هؤلاء الموسيقيين النوابغ أيضا نذكر الموسيقار المشهور في صدر الدولة العباسية وأحد أعلام الموسيقى في التاريخ وهو ابراهيم الموصلي فقد ذكر عنه أبو الفرج الاصفهاني في كتابه (الاغاني) انه استطاع ان يميز الخطأ الذي حدث على وتر عود تعزف عليه جارية جلست من بين ثلاثين جارية في يد كل منهن عود يعزفن النغم ذاته فاستطاع ان يذكر اسم الجارية التي أخطأت في العزف ويذكر الوتر الذي خرجت عليه دون بقية العازفات · ومثل ذلك ما قيل عن ابنه اسحق الموصلي ·

لقد كان الملا عثمان اعجوبة حقا لذلك عزمت على الكتابة عنه وبحثت بين الكتب فلم أجد احدا ألف كتابا عنه · غير انني وجدت العشرات من الادباء الذين كتبوا عنه مقالات كثيرة ، غير أن أياً منهم لم يكتب سوى مقالة لا تكون الا شيئاً زهيداً من كتاب · وشمرت الساعد اطرق الابواب على الذين رأوا الملا عثمان يوماً ما أو عاصروه أو التقوا به مرة · وهنا اتضحت لي صعوبة المهمة التي القيتها على عاتقي فليس من السهل الكتابة عن رجل توفي منذ ما يقارب النصف قرن بمجرد الاعتماد على أقوال الناس ورواياتهم التي كثيراً ما تختلف عن بعضها وتتضارب مع غيرها · وآثرت الاعتماد على الروايات المسندة والتي يرويها الثقاة عن بعضهم وتركت الكثير غيرها مما لا سند له ، أو الروايات الضعيفة التي لم تؤيد ·

وسمعت مرة ان في الموصل شيخاً معمراً تجاوز المائة من عمره ويتمتع بوعيه الكامل فعقدت العزم على زيارته لاسأله عما يعرفه عن الملا عثمان فقد كان معاصراً له دون شك . فأخذت سبيلي اليه في الازقة الضيقة المتعرجة حتى وجدتني جالساً أمامه في غرفته . وبعد حديث عن الماضي وعن سلاطين العثمانيين وأيام الحرب العظمى الاولى سألته عن الملا عثمان فسكت قليلاً يستعيد ذاكرته ثم قال : (نعم كان هناك رجل أعمى اسمه الملا عثمان) . وكان ذلك كل ما يعرفه عنه فجمعت أوراقي ونهضت مستأذناً قبل ان اكمل حديثي معه وقد ايقنت بأن الامر ليس سهلاً كما كنت اتصوره ورحت افتش عن غيره من الناس الاذكياء الذين لهم اطلاع ومعرفة بالناس والحوادث وما اندر مثل هؤلاء .

وأود أن أشير الى ان كثيراً من أدباء العراق والموصل خاصة ابدوا مساعدة قيمة في اخراج هذا الكتاب من تقديم المصادر ، واعطاء النبذ والتعليقات والاخبار التي لها صلة بالموضوع واخص بالذكر منهم الاستاذ محمد صديق الجليلي والدكتور يوسف عزالدين الامين العام للمجمع العلمي العراقي والاستاذ سعيد الديوهجي مدير متحف الموصل والشيخ محمد صالح الجوادي والشيخ عمر النعمة والاستاذ عبدالمنعم الغلامي والاستاذ عبدالجواد الجوادي والاستاذ عبدالمجيد شوقي وغيرهم من الافاضل والادباء ورجال العلم والفن شاكراً لهم تلك المساهمة وذلك الفضل .

ومما جوبهت به عند كتابة حوادث الموضوع اختلاف التواريخ بين هجرية وميلادية فضلاً عن الاختلاف حسب المراجع فجعلت اعتمد على التواريخ الموثوقة عاملاً على التوحيد بينها قدر المستطاع .

ثم جعلت هامش الكتاب فيه من التفصيل والتوضيح ما يكمل الفائدة

المتوخاة للقاريء واضعاً فيه تراجم كثير من أعلام الرجال من الذين لهم بعض الصلة بتاريخ الملا عثمان لاسيما من عاش منهم في الموصل حتى تكاد تكون تراجمهم مع الفصل الاول من الكتاب تاريخاً منفصلاً عن رجال الفن والموسيقى في الموصل خلال حقبة طويلة من الزمن ٠

أما مصادر الكتاب فقد اجتهدت ان اشير اليها في كل صفحة حسب ورودها (الا نادراً مما تعمدت اغفاله خوفاً من ان أرهق هامش الكتاب بذكر هذه المصادر مما لا لزوم له فوق ما اثقلته به من ذكر التراجم والتعليقات الكثيرة) واعقبت ذلك بذكر المصادر كلها في جدول خاص بآخر الكتاب ٠

ومع ذلك فالكتاب قد لا يخلو من نواقص آمل أن أكملها في الطبعة الثانية ٠

كما انه قد لا يخلو من أخطاء أو هفوات ناتجة عن اختلاف المراجع والروايات مما يلمسه المطلعون من رجال الفكر والتاريخ ؛ ولكنني أقول حسبي انني عملت جهدي من أجل ان لا تحدث هذه الاخطاء وسأعمل جهدي أيضاً على تلافيها مستقبلاً في الطبعة القادمة ان شاء الله والكمال لله وحده ٠

المؤلف

الموسيقى وتاريخها في الموصل

نبذة تاريخية عن تأسيس الموصل • أول ماعرف عن فنون الموسيقى فيها • أسباب تقدم فن الموسيقى فيها • اشهر الموسيقيين الموصليين في التاريخ ، أنواع الغناء في الموصل •

عرف عن الموصل انها مدينة تتعشق الفن وتهوى الجمال وقد انجبت اجيالا من رجال الفن والفكر خلال الحقبة الطويلة من عمرها •

وكانت الموصل في أول امرها حصناً من حصون الاشوريين يقع على الضفة الغربية من دجلة مقابل مدينة نينوى الاشورية يدعى (الحصن العبوري) وقد تعمرت المنطقة تدريجيا لا سيما بعد خراب نينوى • وعند الفتح الاسلامي كانت الموصل بلدة صغيرة يسكنها المجوس من الفرس والجرامقة النصارى ثم اتسعت المدينة بعد الاسلام لان كثيرا من القبائل العربية الفاتحة سكنتها منها قبيلة خزرج وبنو تميم وتغلب وغيرها • فزاد العمران فيها وازدهرت التجارة لوقوعها على الطرق التجارية الرئيسية بين العراق والشام وفارس والاناضول وارمينية • ثم اقتبست من حضارة الشعوب المجاورة في مختلف العصور حتى اصبحت في زمن العباسيين والاتابكيين من امهات المدن في الدولة العربية •

ولابد للباحث في تاريخ الموسيقى ونشوئها في هذه المدينة من التطرق الى العلاقة بينها وبين الموسيقى عند الآشوريين على اعتبار ان الآشوريين كانوا يعيشون في تلك المنطقة ، وان الموصل نفسها نشأت كحصن عسكري في بلاد الآشوريين ، ثم اتسعت بعد ذلك • فكان أقدم ذكر للموسيقى في تلك المنطقة ما ورد في نقوش آشور بانيبال (في القرن السابع قبل الميلاد)

وذلك ان الاسرى العرب عند الآشوريين كانوا يقضون وقتهم في الغناء وترديد (أليلي Alili) وهم يشتغلون مما أطرب الآشوريين لدرجة جعلتهم يسألونهم المزيد[1] .

ونستطيع ان نلحظ التشابه في الكلمات الخاصة بالموسيقى في اللغتين العربية والاشورية حيث يسمى المزمار بالاشورية زمارو Zamaru وكذلك الطبل فيها (طبالو) و الدف هو (ادبو) ويدعى القرن الذي ينفخ فيه (قرنو)[2] .

وعندما دخلت القبائل العربية اثناء الفتح الاسلامي للموصل عرف آنذاك الحداء الذي يتفق ايقاعه وسير الابل ومنه جاء الغناء المسمى بالركباني . ثم تطور الامر بعد احتكاك العرب بالشعوب الاخرى اثناء الفتوحات الاسلامية واتصالهم بحضاراتها فظهر عندئذ مغنون مشهورون في المدينة وفي دمشق والكوفة على زمن الامويين ثم في بغداد بعدئذ على زمن العباسيين حتى اصبح الغناء حرفة لها من يزاولها في جميع المدن العربية نظرا للتشجيع الذي كان يبديه الخلفاء العباسيون آنذاك .

وكان للموصل نصيب في ارتقاء الفنون المختلفة ومنها الموسيقى والغناء حتى انها نالت شهرة فيهما ومن اسباب ذلك ١ ـ الموقع الجغرافي حيث تقع على ملتقى الطرق الرئيسية بين الاقطار المجاورة وتمر منها قوافل التجارة وقوافل البريد وقتئذ ٢ ـ جمال الطبيعة حيث تحيط بها السهول والجبال والاراضي المتموجة ما بينهما مما لا يشابه ذلك اي جزء آخر من العراق ٣ ـ الارهاف الحسي عند اهل الموصل فهي مدينة شديدة البرد شتاءً وشديدة الحر صيفاً فكان هذا الاختلاف الكبير في درجات الحرارة الذي هو اكثر من اي بلد آخر من عوامل ارهاف الحس وانفعال العاطفة

---

(١) تاريخ الموسيقى العربية ـ تأليف هـ . ج . فارمر .
(٢) المصدر نفسه .

والتحسس تجاه الموسيقى • والى جانب عوامل المناخ نذكر الاهتمام الذي اظهره الاتابكيون بالموسيقى والغناء ابان حكمهم للموصل •

وكان للطرق الصوفية في الموصل أثـر بين في المحافظة على التراث الموسيقى فيها وذلك بما تقيمه هذه الطرق من حفلات الموالد والذكر مع الحرص على اقامة مثل هذه الاجتماعات في المناسبات المختلفة ، وتشجيعها والحفاظ عليها كاحدى الشعائر التي يجب ان تبقى ولا تزول ، وذلك ضمن المحافظة على كل تراث عربي اسلامي • حتى ان المتصوف الشيخ محيي الدين بن عربي الف كتابا عن الموشحات الموصلية عندما كان في الموصل عام ٦٢٦هـ سـماه (التنـزلات الموصلية في اسـرار الطهـارات والصـلوات والايـام الاصلية)[1] •

ولهذه الموشحات الحانها وفرقها التي تقـوم بانشادها • كمـا أن لها موسيقاها الخاصة • ورغم ان هذه الموسيقى تختلف بين عصر وآخر الا ان أكثر الآلات الموسيقية مشاركة وأعمها استعمالا بـين الفرق الموسيقية على مختلف العصور هي الطبول والدفوف (وغيرها من آلات القرع كالطبلات او النقارات وغيرها) • ويمكننا أن نأخذ فكرة عن كثرة استعمال الطبول والدفوف في الموصل عندما نعلم ان محلة باكملها يشتغل اهلها بصناعة هذه الآلات الموسيقية وهي محلة الطبالين وقد ذكرها المؤرخ ابن الاثير[2] عند تعرضه لوصف الموصل اثناء تولي الشهيد نورالدين زنكي الحكم فيها • وموقع هذه المحلة في الوقت الحاضر شمال الجامع النوري في المنطقة المحصورة بين شارع النبي جرجيس وشارع الفاروق •

ويروى ان الملك بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل كان لديه عدد من المغنين والموسيقين في مجلسة وعلى رأسهم يوسف أمير المطربين[3] في ذلك

---

(١) كتاب فهرس المخطوطات المصورة ـ فؤاد سيد •
(٢) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ـ لابن الاثير •
(٣) الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان ـ عباس العزاوي •

الوقت . وكانت الموصل آنذاك قد اشتهرت بحضارتها وتقدم فنون الموسيقى والغناء فيها حتى ان الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين كتب الى بدرالدين لؤلؤ يطلب منه جماعة من ذوي الطرب لايفادهم اليه ، وفي تلك الحال وصل رسول هولاكو اليه يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار ليفتتح بها بغداد فقال بدرالدين : انظـروا الى المطلـوبين وابكـوا على الاسـلام وأهـله[1] .

وفي زمن الملك الصالح بن بدرالدين لؤلؤ حاصر التتر الموصل بقيادة سمدغو وضيقوا عليها الحصـار فاضطر الملك الصالح الى فتـح المدينة لهم ومصالحتهم وخرج لاستقبال الجيش التتري بآلات الطرب والاغاني[2] .

ولما كان الاستقرار السياسي هو خير عامل على تقدم العلوم والفنون فاننا نجد ان فنون الموسيقى والغناء في الموصل تراوح بين تقدم وانحطاط تبعا لتلك الظروف السياسية . الا ان الشهرة التي نالتها الموصل في فن الموسيقى على زمن العباسيين كانت بسبب ما بلغـه ابراهيم الموصلي وابنه اسحق من فنون في الموسيقى والغناء حتى وصلت شهرتهما الى جميع بقاع المعمورة وقتئذ .

ولم يكن ابراهيم موصليا في الحقيقة بل كان فارسيا وقد ولد في الكوفة عام ٧٤٢م من أب يدعى ميمون ولقب بالموصلي لانه سافر الى الموصل فاقام فيها فترة من الزمن تلقى خلالها دروسه الاولى في الموسيقى وكان قد صحب جماعة من الصعاليك في المدينة فيقصفون ويشربون ويغنون وتعلم الغناء فيها . ولما أحس بمقدرته على ذلك سافر الى بلاد الري حيث حصل على معرفة واسعة بالغناء الفارسي والعربي . واستقر به المقام بعدئذ في بغداد . وكان اذا شرب كثيرا وسكر جعل يغني :

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ــ ابن الطقطقي .
(٢) تاريخ الموصل ج ١ للصائغ .

انا جيت من طرق موصل أحمل قلل خمريا
من شارب الملوك فلا بد من سكريا[1]

ثم اتصل بالخليفة المهدي ومن بعده بالهادي والرشيد ولمع اسمه ونال شهرة عظيمة بالغناء والموسيقى حتى نسب اليه ما لا يقل عن **٩٠٠** لحن من الالحان التي وضعها[2] • وكان لا ينافسه في تلحينه أحد • ونسب اليه الايقاع بالقضيب • وقد تخرج عليه عدد كبير من الموسيقين في العهد العباسي • وكانت وفاته في بغداد عام **٨٠٤**م •

وبعد وفاته كان ابنه اسحاق الموصلي قد اعقبه في المكانة والشهرة الموسيقية التى نالها ابوه من قبل • بل كان اكثر من ذلك عالما اديبا فقيها • وقد ولد اسحاق في الري عام **٧٦٧**م وجاء الى بغداد مع ابيه فتلقى ثقافة عالية في الموسيقى حتى اصبح من اعظم موسيقيي عصره • ودرس اللغة والقرآن والادب على مشاهير العلماء كالكسائي والفراء والاصمعي • وكان ذا حظوة عند الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم حتى انه كان يدخل عليهم مع العلماء والقضاة والادباء لا مع المغنين والموسيقيين وسمح له بارتداء الملابس العباسية السوداء التي لا يلبسها الا الفقهاء • وتوفي في بغداد عام **٨٥٠**م[3] •

غير ان اشهر من مارس الموسيقى من اهل الموصل وبرع فيها هو صاعد ابو العلاء بن الحسن الذي ولد في الموصل في أواخر النصف الاول من القرن الرابع الهجرى • وسافر الى بغداد فلقب بالبغدادي ثم قصد بلاد الاندلس ولمع نجمه فيها وكان شاعرا أديبا في الوقت نفسه واتقن العزف على العود وابدع في الغناء • وكان فردا في علم الموسيقى وقد غنى وعزف على العود امام المنصور محمد بن ابي عامر في قرطبه • وقد اكرمه المنصور وقرّبه اليه حتى انه استوزره فيما بعد • وكانت وفاته في صقلية عام **٤١٧**هـ •

---

(١) الاغاني ج ٥ للاصفهاني •
(٢) المصدر السابق •
(٣) المصدر السابق •

ومن علماء الموصل الذين اشتغلوا في الموسيقى كمال الدين موسى بن يونس بن منعة الذي ولد في الموصل عام ١١٥٦م واشتهر امره في المدرسة النظامية في بغداد . وبعد رجوعه الى الموصل اشتغل بالتدريس في مدارسها . ويقول عنه ابن خلكان بانه يعرف فنون الموسيقى وغيرها معرفة لا يشاركه فيها غيره . ومن تلاميذه في الموسيقى علم الدين قيصر بن ابي القاسم المتوفى في دمشق عام ١٢٥١م[١] .

ومنهم ايضا زين الدين ابو عبدالله الحسين بن البرهان الموصلي وهو مغن شهير وشاعر كبير وعالم في الموسيقى ومن اغانيه[٢] :

يا نار اسود قلبي ونور اسود عيني
كن راحماً لمحب اباحك الاسودين

وقد توفي في بغداد عام ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) ودفن في مقبرة الوردية[٣] .

وممن اشتهر بالموسيقى من اهل الموصل ايضا الكمال بن البرهان الصوفي وهو كمال الدين محمد بن البرهان الصوفي الموصلي وقد عاش في بغداد وكان بارعا بالموسيقى وذكر عنه بانه كان صاحبا لأقضى القضاة ابن السباك[٤] .

ومنهم ايضا ابو الحرم بن الريان النحوي وكان يشتغل بتدريس الموسيقى الى جانب العلوم الاخرى في الموصل وكان ذلك في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

---

(١) تاريخ الموسيقى العربية ـ فارمر .

(٢) الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان ـ العزاوي .

(٣) وهي مقبرة قديمة في بغداد تعرف الان بمقبرة الشيخ عمر وهي التي دفن فيها الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي الفقيه المتصوف المتوفى عام ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) وكان فقيها كثير العبادة تخرج عليه عدد كبير من المتصوفة . وعلى قبره اليوم قبة مخروطية من الطراز السلجوقي (دليل خارطة بغداد ـ جواد وسوسه) .

(٤) الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان ـ العزاوي .

ومنهم أيضا يحيى بن ابي منصور الموصلي الأديب[1] وقد كتب في الموسيقى وفي العلوم الاخرى ومن كتبه كتاب العود واللاهي ، وكتاب الاغاني الذي رتبه حسب الحروف الهجائية ٠

ومن الذين اشتغلوا بالكتابة في الموسيقى من اهل الموصل الشيخ احمد ابن عبدالرحمن القادري الرفاعي الموصلي الشهير بالمسلم الموصلي[2] المتوفي في حدود عام ١١٥٠هـ (١٧٣٦م) وكان ذا المام بالموسيقى والمقام حيث ألف رسالة الدرّ النقي في علم الموسيقى التي هي في الاصل مترجمة عن الفارسية مع ما اضافه اليها من معلوماته في الموسيقى ٠

ومن الموصليين المتأخرين الذين برعوا بالموسيقى والالحان خليل بن علي البصير وقد ولد في الموصل عام ١٧٠٠م ورغب في العلم ٠ وهو مكفوف ونبغ نبوغا عجيبا في الدروس العقلية واللغوية وكانت له معرفة تامة بالموسيقى والشعر ٠ وكان قوي الذاكرة ، سريع الحفظ ، ويتقن عدة لغات وقد توفي عام ١٧٦٢م ٠

ومن هؤلاء ايضا الاديب الموسيقار الشيخ قاسم الرامي الموصلي وقد اشتهر بالتلحين وبالموشحات ٠ وتوفي عام ١١٨٦هـ (١٧٧٢م)[3] ٠

ومنهم ايضا الاديب المقريء الملا سعدي بن محمد امين بن سعدالدين الموصلي : وكانت له اليد الطولى في الموسيقى والالحان وقد سافر الى بغداد واقام فيها ٠ ونقل اليها الشيء الكثير من التواشيح والتنزيلات الموصلية ٠ وكانت اقامته في بغداد في زمن ولاية سليمان باشا الكبير ثم رجع الى الموصل عام ٢١٧هـ (١٨٠٢م) لحدوث الطاعون فيها ، وبعد ذلك عاد الى بغداد في ولاية داود باشا ٠ وكان ينظم الشعر على وزن الموشحات ٠ ويعزى نظم كثير من الموشحات التي تقرأ في الموالد في بغداد اليه ٠ وله المام بالمقام

---

(١) الفهرست ـ ابن النديم ٠
(٢) الدر النقي في علم الموسيقى للمسلم الموصلي ٠
(٣) التراث الموسيقي في الموصل ـ محمد صديق الجليلي ٠

العراقي • وكانت وفاته في بغداد حيث دفن في جامع الفضل[1] •

والمعروف عن الموصل انها تشتهر بغناء الركباني وهو غناء محبب اكثر من غيره نظرا لسهولته وملاءمته للمواقف الحماسية والفروسية • وهو من بحر الرجز الذي يسهل التعبير به • كما ان نغمه من الاوج ويكثر في اطراف المدينة •

ومن انواع الغناء الاخرى السويحلي المنتشر في المدينة وفي القرى المحيطة بها لا سيما القرى المسيحية القريبة من الموصل[2] والواقعة في الجهة الشرقية من نهر دجلة • كما ان الاهازيج والعتابة تنتشر في القرى والارياف والمناطق التي تكثر فيها العشائر العربية ، وفي بعض اطراف المدينة • اما في داخل مدينة الموصل فبالاضافة الى ما ذكرنا هناك انواع اخرى من الغناء منها المقامات واخصها مقام الناري والمكابل والمنصوري • وكذلك الموشحات والليالي واغاني الزفة والاغاني الاجتماعية واغاني رمضان والاعياد • وهي تختلف بلهجاتها حسب احياء المدينة ومناطقها •

ويوجد في بغداد ضرب من الغناء يدعى بالمصلاوية ويعتقد انه نشأ في الموصل وانتقل منها الى بغداد منذ زمن بعيد • وهذا الغناء يغنيه مطربو المقامات العراقية بعد قراءتهم لمقام الحجاز والمدمى • و تكون كلماته منظومة بأبيات رباعية من الشعر الشعبي ويغني بنغم الحجاز[3] •

وهكذا فقد جاء عثمان الموصلي ليكمل بناء الصرح الموسيقي العتيد في هذه المدينة الخالدة ، وليرسم خطوطا جديدة في فنون الموسيقى يتغنى بها الموصليون ، فيضيف امجادا فنية الى تلك الامجاد • ثم يمضي تاركا المدينة الحدباء تغفو اغفاءتها الحالمة على ضفاف دجلة وهي تجتر ذكرياتها الحلوة ، ولا سيما بعد ان توالت عليها الاحداث فجعلتها تعيش عيشة لا تتصل بالموسيقى والغناء بأي سبب الا ما كان نزرا قليلا لا يحسب حسابه •

---

(١) المغنون البغداديون والمقام العراقي ـ للحنفي • والتراث الموسيقي في الموصل ـ للجليلي •

(٢) الغناء العراقي ـ حمودي الوردي •

(٣) المصدر السابق •

النشأة الأولى

ولادة عثمان الموصلي ونسبه . نشأته في دار العمري وتعليمه . دراسته في استانبول ومصر .

في منتصف القرن التاسع عشر كانت الموصل بلدة صغيرة مهملة خاضعة تحت حكم العثمانيين وكان المسافر يراها من بعيد وقد قبعت على حافة دجلة منكمشة على نفسها ضمن سورها القديم المتداعي . ولم يكن حظها من العلم والثقافة بأحسن من غيرها من البلاد العربية التي تعاني من التأخر والانحطاط والجهل بسبب من اهمال السلطة الحاكمة لها .

ففي سنة من تلك السنين ولد لعائلة فقيرة تسكن في محلة باب العراق الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي من المدينة طفل ذكي وكان ذلك بالضبط عام ١٢٧١هـ الموافق لعام ١٨٥٤م . وكان والده الحاج عبدالله سقاءً توارث المهنة عن اجداده . وكان خامل الذكر لا يعرفه من الناس الا عدد قليل . بل ان قليلا منهم من يعرف عائلته واقاربه . وكانت السقاية مهنة متواضعة يقبل عليها الفقراء من الناس ومع ذلك فقد كانت شائعة جدا في الموصل نظرا الى حاجة اهل المدينة الى من يتولى جلب الماء لهم من النهر .

والحاج عبدالله هذا اختلف الرواة والمؤلفون في نسبه ولكن هناك

رأيين في ذلك نذكرهما معا لاهميتهما • أولهما ما يقول به كل من احمد عزة باشا العمرى في كتابه المسمى (العقود الجوهرية) ، واسماعيل فرج (في مجلة الجزيرة) ومحمد بهجة الاثري (في لغة العرب) وخيرالدين الزركلي (في كتاب الاعلام) فقد ذكروا جميعا ان الحاج عبدالله هو ابن الحاج فتحي بن عليوي المنسوب الى بيت الطحان • ويكاد يجمع على ذلك جميع الكتاب والمؤرخين الذين تطرقوا الى البحث في تاريخ حياة عثمان الموصلي ، واظنهم قد نقلوا ذلك نقلا عن كتاب العقود الجوهرية المذكور حيث ان مؤلفه احمد عزة باشا العمري ذكر فيه ان عثمان الموصلي قد تربى صغيرا في دار ابيه فهو ربيب آل العمري يعلمون عنه ما لا يعلمه غيرهم ، وهم ادرى الناس بأصله ونسبه • وان ما يذكره المؤلف العمرى عن عثمان الموصلي يؤخذ بنظر الاعتبار ولا يكاد يتطرق اليه الشك نظرا لهذه الصلة القديمة التي بينهما •

والرأي الثاني هو ما يذكره البحاثة الاستاذ عبدالمنعم الغلامي وهو ان الملا عثمان الموصلي هو ابن الحاج عبدالله بن محمد بن جرجيس من عشيرة البو علوان احدى فروع قبيلة الدليم[1] • وكان للحاج عبدالله خمسة ابناء هم محمد والحاج حسين وعلي (الملقب علاوي والذي قد يختلط على بعض المؤلفين فيجعلوه جدا للملا عثمان كما يقول الاستاذ الغلامي) والحاج عمر وعثمان (موضوع بحثنا) •

وعلى اية حال فان الحاج عبدالله هذا لم يلبث ان توفي تاركا الطفل الصغير عثمان قبل ان يبلغ السابعة من عمره ، تركه يتيما لا معيل له • ولم يلبث على اثر ذلك ان أصيب بفقد بصره وبذلك فقد ألمت بهذا الطفل

---

(١) ربما كان هذا الرأي هو الاصح حيث يؤكده النسب الذي يحتفظ به أحفاد الملا عثمان الموصلي وقد اطلعني عليه الحاج علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ عثمان الموصلي عندما اتصلت به قبل وفاته بأيام قلائل فقد جاء فيه ان الشيخ عثمان هو ابن الحاج عبدالله بن محمد بن جرجيس (الملقب ججو) بن محمود بن عبدو بن جرجيس •

مصيبتان فاجعتان الاولى فقده لوالده الذي فقد معه حنان الابوة ورعاية الآباء لابنائهم وتربيتهم وتوجيههم لهم • والثانية فقده لنور بصره الذي يعينه على تحمل مشاق الحياة وعلى كسب الرزق وهو لما يزل طفلا صغيرا[١] • وعندئذ شاءت العناية الالهية ان تحيط بالطفل اليتيم وتأخذ بيده الى ما فيه خيره وسعادته وذلك انها سخرت له جاره الوجيه الموصلي محمود افندي بن سليمان افندي العمرى فاخذه الى بيته وضمه الى اولاده وجعله موضع عنايته • وعين له معلما يحفظه القرآن الكريم عن ظهر قلبه ، فكان هذا الطفل الضرير يعيد في الليل ما حفظه في النهار من دروس القرآن ويكرره بصوت مرتفع رخيم وهو منفرد في الغرفة المخصصة له في دار الوجيه المذكور •

وكان المرحوم محمود افندي العمري معجبا بصوت هذا الطفل الصغير فكان يصغى اليه ويأنس به ويطرب لترنيمه وقراءته فخصص له معلما آخر يعلمه الموسيقى والالحان فنبغ بها وحفظ الى جانب ذلك الكثير من الاشعار والقصائد حيث عرف عنه بانه كان سريع الحفظ بطيء النسيان حتى قيل انه كان يحفظ عشرين بيتا من الشعر او اكثر بمجرد قراءتها عليه مرتين او ثلاث •

ولما تعلم مبادىء العلوم الاولية واستظهر القرآن الكريم في صغره

---

(١) يذكر بعض الكتاب ان احدى الجارات كانت تكيد لام عثمان وتناصبها العداء فرأت فرصة خلو دار هذا الطفل من أمه وهو رضيع في مهده فقلعت عينيه وخرجت • وقيل ان أمه خبأت مقلتيه حتى شب عن الطوق وأصبح شاباً فسلمته اياهما وهي تحسب ان هناك من يستطيع اعادتهما الى محجريهما • ان هذه الرواية غير صحيحة دون شك لان عثمان أصيب بالعمى على أثر اصابته بمرض الجدري الذي ترك ندباً في وجهه ظلت ظاهرة للعيان طول حياته وهو مرض يؤثر في العين فيصيبها بالعمى غالباً • ويذكر بعض المسنين نقلاً عمن شاهد عثمان في أول حياته انه عندما كان في السادسة من عمره (قبل مرضه) كان سليماً معافى متمتعاً ببصره حتى انه لا يكاد يدخل بيتاً من بيوت أقاربه أو جيرانه الا ويبادر الى القفز الى الحائط على يديه ، بخفة تدعو الى الاعجاب •

شرع في قراءة بعض العلوم العربية كالصرف والنحو والمعاني والبيان على علماء عصر وافاضل وقته منهم الشيخ المرحوم الحاج عمر الاربيلي والشيخ المرحوم صالح الخطيب[1] والشيخ المرحوم الحاج عبدالله الفيضي الخضري[2] وغيرهم من علماء الموصل وشيوخها .

وقد بلغ عثمان اشده وهو لا يزال مقيما في البيت الذى آواه صغيرا وعطف عليه كبيرا يغترف من العلم وينطلق في شعاب الفن ويستزيد من كل معرفة في ظل الرجل الذي رباه واسبغ عليه حنان الابوة التي كان يفتقر اليها وهو السري الفاضل محمود افندي العمري فهو الآخر كان محبا للعلوم والموسيقى وكانت داره منتدى لاهل الادب والعلم والفضل . ولكن هذا الرجل لم يلبث ان حضرته المنية عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م)[3] فكان لذلك وقع كبير في نفس عثمان واحس بالفراغ الذي انتهى اليه ودفعه الامر الى ان يترك مدينته الموصل الحدباء متوجها الى بغداد بعد ان اكتملت رجولته واصبح في العقد الثالث من عمره وكان ذلك اول سفر اليها .

وفي بغداد كان يقيم ابن المرحوم محمود افندي العمري وهو الاديب

---

(١) الشيخ صالح بن الحاج طه الخطيب : أحد العلماء الاعلام في الموصل . درس على رئيس العلماء الشيخ عبدالله العمري وانتهت اليه رئاسة الشافعية في الموصل وقد تخرج عليه جيل من العلماء وتوفي سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) . ـ تاريخ علماء الموصل ج ١ ـ .

(٢) الحاج عبدالله الفيضي الخضري : أحد العلماء المشهورين له بعض المؤلفات . وقد درس على رئيس العلماء الشيخ عبدالله العمري واتخذ له زاوية في مسجد صغير في محلة باب النبي في الموصل . وتوفي سنة ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) ـ مجلة الجزيرة ١٩٤٧ ـ .

(٣) رثاه الشاعر المرحوم شهاب المليسي مؤرخاً وفاته بقوله :

عز العزا عمن قضى نحبه ... وسار للجنات مسرورا
محمود أرباب العلى سيرة ... قد سار للجنات محبورا
طود العلا والقبر قد ضمه ... فاعجب لطود بات مقبورا
قد عاش محموداً وتاريخه ... محمود وصف مات مشكورا

العلامة احمد عزة باشا العمري[1] فتلقاه هذا بالتكريم والتقدير مقتفيا اثر والده بالاحسان اليه حيث اقام عنده في بغداد مدة طويلة وهو يصف استقباله للشيخ عثمان في كتابه العقود الجوهرية بقوله (فتوجه الى بغداد وكنت اذ ذاك فيها فنزل عندي يعيد ويبدى وفاء للحقوق التى لا زال يبديها ولا يخفيها متردیا بظاهرها وخافيها فتلقيته ملاقاة الاب والاخ) . واثناء مكوثه في بغداد استطاع التعرف على كثير من ادباء العراق ورجاله الافاضل فاعجبوا بذكائه ونوادره وادبه واحتفوا به في كل مجلس وقصدوه من كل صوب يستمعون اليه ويبادلونه الشعر والادب ويقيمون له المآدب ويدعونه الى المحافل في مقدمة من يدعون . وقد وصف ذلك احمد عزة العمرى في كتابه الآنف الذكر بقوله (فتهادته فيها اكف الاكابر وحفت به عيون الاصاغر فاصبح في بغداد فاكهة الادباء ونقل الظرفاء وشمامة الاوداء . واشتهر بحسن قراءة المولد الكريم على صاحبه افضل الصلاة والتسليم . فاومض فيها برق اسمه وعلا مبارك كعبه ورسمه ، فتركته على هذه الصورة في الزوراء تهب عليه ريح الرخاء حيث يشاء ، وامسى عند كل ذي عين جلدة ما بين الانف والعين) .

وفي مكوثه ببغداد رأى المجال امامه للاستزادة من العلم والتحصيل فلم يشأ ان تضيع منه الفرصة فجعل يدرس صحيح الامام البخاري على المرحوم الشيخ داود افندي وحفظ نصفه ثم توفي مدرسه الشيخ المذكور وعندئذ اكمل حفظ النصف الثاني على الشيخ بهاء الحق افندي الهندي

---

(١) أحمد عزة باشا بن محمود افندي بن سليمان العمري وهو شاعر أديب ولد عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م) ودرس الشعر والادب على عمه الشاعر العراقي الشهير عبدالباقي العمري وقد ألف من الكتب كتاب الفوائد الفكرية وكتاب العقود الجوهرية وله كثير من القصائد المخطوطة المتفرقة وطبع في الاستانة ديوان الشاعر الموصلي عبدالغفار الاخرس . وكانت وفاته عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) . (الاعلام للزركلي)

المدرس الثاني في جامع الامام الاعظم حسبما ذكره المرحوم اسماعيل فرج في مجلة الجزيرة الموصلية ·

وان الاتجاه الديني الذي اتجهه عثمان الموصلي منذ حداثة سنه ، ودراسته للقرآن الكريم وعلوم الفقه ، وقراءته للمولد النبوي الشريف حمل الناس على ان يطلقوا عليه لقب (الملا)[1] وهو اللقب الذي يطلقه العراقيون على كل من يشتغل في قضايا الدين والقراءة وتدريس القرآن الكريم ·

وقد عرف الملا عثمان اثناء اقامته في بغداد باجادته لقـراءة القـرآن الكريم والموشحات والموالد النبوية التي لا يضارعه فيها احد ، ونال بذلك شهرة واسعة جعلت الناس يقبلون عليه من كل مكان لسماع صوته · وقد وصف ذلك الاستاذ محمد بهجة الاثري في مجـلة لغـة العرب في عـدد تشرين الثاني عام ١٩٢٦ بقوله (تتهاداه الاكف من مجلس الى مجلس ومن ناد الى ناد ، والناس يخفون اليه سراعا من كل حدب لسماع قراءته المولد النبوي ، يحيون الليلة بعد الليلة مفضلين التلذذ بانغامه على لذة المنام ،

---

(١) دعي عثمان الموصلي بالقاب منها الملا والحافظ والمولوي وعثمان دده (بعد انتسابه الى المولوية) غير انه غلب عليه لقب الملا وهو ما درجنا على اطلاقه عليه في هذا الكتاب في أكثر المواضع ·

واصل كلمة (ملا) غير معروف وهي كلمة شاعت في العصور المتأخرة في تركيا وبعض البلاد العربية لاسيما العراق ولعلها تكون محرفة عن كلمة (ملاّء) وهو الذي يملي الـكتابة والقراءة على الصبيان في المدارس الدينية والـكتاتيب · وقد تكون مختصرة من العبارة التي يوصف بها العالم بانه (ملاّ جهل له) بادغام (من لا) في أول العبارة المذكورة · ويذكر بعضهم بانها مشتقة من كلمة (منلا) التركية · أو انها لفظة آرامية من كلمة (ملالا) ومعناها المتكلم أو الخطيب · غير ان العلامة الاب انستاس ماري الـكرملي يذكر في مجلة لغة العرب (الجزء الخامس من السنة الرابعة ١٩٢٦) بأن هذه الـكلمة هي قصر كلمة (مولى) بمعنى السيد ثم اقحمت النون منعـاً للتضعيف وهو ما يكرهه بعضهم عرباً كانوا أو اعاجم فصارت (منلا) ومثل هذا الاقحام : انجاص (في اجاص) واترنج (في اترج) وغيرها · ويرفض العلامة الـكرملي ان تكون الكلمة من أصل (ملالا) الآرامية ويقول ان كلمة (ملا) عربية الاصل لا تركية ولا آرامية ·

وتعشقوا صوته ولازموا مجالسه ملازمة الظل لصاحبه) .

وبعد ان قضى فترة في بغداد عزم على اداء فريضة الحج وكان ذلك حجه الاول اذ انه كما عرف عنه قام بزيارة مكة المكرمة لاداء فريضة الحج اكثر من مرة واقلها مرتان هذه اولاهما . وبعد رجوعه من الحج قصد الموصل وذلك عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) حيث حن اليها بعد طول غيابه عنها . وبعد أن قر عينا بالاياب الى بلدته استأنف الدرس والتتبع وملازمة كبار شيوخ البلدة وعلمائها منهم الشيخ السيد محمد بن جرجيس الموصلي الشهير بالنوري[١] حيث لازمه واخذ عنه الطريقة القادرية وهي احدى الطرق الصوفية المشهورة في الموصل والتزم حلقة الذكر عنده في الجامع النوري . وكان يقرأ القرآن بعد مجالس وعظ الشيخ المذكور التي يقيمها بعد صلاة العصر . وكان الجامع يغص بالمسترشدين والمستمعين .

وفي ايام انتظام الحافظ عثمان في سلك اتباع ومريدي الشيخ محمد النوري قرأ القراءات السبع على الطريقة الشاطبية على الشيخ المقريء المرحوم محمد بن الحاج حسن واجازه بها . وبعد مدة من الزمن عزم على

---

(١) السيد محمد بن السيد جرجيس الموصلي ولقبه النوري : وهو شيخ السجادة القادرية النورية في الموصل ومن أكابر علمائها . اشتغل بتعمير بناية الجامع النوري في الموصل واقام التكية القادرية هناك . وقد تم بناؤها عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) وهي التكية التي ساهمت بتخريج عدد كبير من قراء الموصل ولكن مديرية الاوقاف قامت بهدمها عام ١٩٥٦م فلم يبق لها أثر الآن . وله خزانة كتب في الجامع المذكور تحوي كثيراً من مؤلفاته في التفسير والتصوف والوعظ . وتوفي في الموصل عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) ودفن في الجامع النوري وقبره فيه ظاهر يزار . وقد لقب بالنوري لانه أخذ الطريقة القادرية عن الشيخ نوري الاخلاتي البريفكي بن الشيخ عبدالجبار بن الشيخ نوري بن الشيخ ابي بكر بن الشيخ زين العابدين ابن الشيخ شمس‌الدين الحسيني البريفكي . وشمس‌الدين هذا هو باني جامع بريفكة ودفين مقبرتها وهي قرية من قرى الاكراد القريبة من الموصل . (جوامع الموصل لسعيد الديوه‌جي ومجلة الجزيرة الموصلية ١٩٤٧ والتراث الموسيقي في الموصل لمحمد صديق الجليلي) .

السفر الى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية آنذاك ومركز النشاط الفكري والاجتماعي في الشرق • واستشار في ذلك شيخه السيد محمد النوري فاذن له بل انه شجعه على السفر اليها فاخذ طريقه مع قافلة متوجهة الى عاصمة الخلافة الاسلامية • واثناء ذلك خصصت له الحكومة راتبا يستعين به هو واهله اثناء غيابه •

وفي استانبول التقى مع احمد عزة باشا العمري فتلقاه هذا كسابق عهده بالترحيب والتكريم وافاض عليه من نعمائه ثم تعرف على كثير من مشاهير الناس وعلمائهم منهم مفتي لواء ازميد الشيخ السيد مصطفى مخفي افندي حيث درس عليه واخذ عنه القراءات العشر وموضـوع التـكبيرات ثم اجازه في ذلك • وبعدئذ رأى ان يتوسع في هذا العلم ويكمل دراسته فيه فسافر الى مصر وهناك التقى مع كبير قرائها يومذاك وهو شيخ قراء طندة الشيخ يوسف عجور امام الشافعية في جامع السيد البدوي حيث اكمل عليه دراسة القراءات العشر وموضوع التهليل والتحميد واجيـز في ذلك على يديه •

وكأن الملا عثمان اراد ان يوضح دراسته هذه في استانبول ومصر ويبينها للناس فقال عن ذلك في احدى اجازاته التى منحها لطلابه : (تلقيت تلك الرواية واحرزتها بالدراية ، عن العالم الورع الزاهد ، والباكي الراكـع الساجد ، العفيف المفيد المستفيد ، شيخى السيد مصطفى مخفي افندي مفتي لواء ازميد ، لا زالت تتعهده الرحمة وتشمل اولاده النعمة ، قرأت عليه طريق التحبير والتيسير بمسالك يوسف افندي زاده ، صاحب (الائتلاف) واجازني ان اقريء (بالطيبة)[1] بلا خلاف • وان صاحب (الائتلاف) ليس له من اوجه التكبيرات غير التكبير ، وقراءتي بالموصل من طريق السبعة فيها التهليل والتكبير والتحميد • لاجل ذلك عزمت على الرواح الى مصر

---

(١) الائتلاف والطيبة اسماء كتب •

بعد اخذ الاجازة لاتم اوجه التكبيرات هناك فسرت الى طندة واتيت الى شيخ قرائها وسيد اوليائها في عصره ، المغترف قراؤها من عمان بحره ، الحافظ الغيور ولي الله بالاتفاق الشيخ يوسف عجور ، قرأت عليه وعمره اذ ذاك مائة وخمسة وثلاثون سنة ، كامل القوة والشعور ، قرأت عليه من البقرة الى نهاية سورة النساء واتبعتها اوجه التبكيرات فاجازني بالقراءة والاقــراء واخذت الاجازة عليه) .

وفي مصر تعرف ايضا على الكثير من علمائها وادبائها ومشايخ طرقها ثم قفل راجعا الى بلدته الموصل يشده اليها الحنين والحب . فتداعى اليه اصدقاؤه ومحبوه وتلاميذه ولم يلبث مدة من الزمن الا وانحدر الى بغداد موطنه الثاني فرحب به عارفو فضله واحتفلوا به .

وكان الشيخ علامة العراق السيد محمود شكري الآلوسي[1] احد الذين اتصل بهم الملا عثمان . وقد درس عليه علوم اللغة العربية في بغداد . وقد ذكر عنه شيخه هذا انه كان شديد الحفظ للدروس التي كان يلقيها عليه .

ويخال للمرء ان هذا الشيخ اعتاد على الاسفار ورأى فيها فوائــد جمة فلم يكد يستقر في بلد الا ويغادره الى بلد آخر للتعرف عليه وعلى فضلاء الناس فيه وعلمائهم وشيوخهم وادبائهم . ويوثق معهم الصداقة حتى انه اصبح يجد في كل بلد يحل فيه اصدقاء يرحبون به ويكرمونه غايــة التكريم وينزلونه اسمى المنازل . كما صار له في كل بلد تلاميذ يدرسون

---

(١) السيد محمود شكري بن السيد عبدالله بهاءالدين الآلوسي : ولد عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) وانصرف للعلم وكان مصلحاً دينياً واشتغل في التدريس في جامع الحيدر خانة وجامع السيد سلطان علي . وقــد نفته الحكومة العثمانية آنذاك لمطالبته بالاصلاح ثم عفت عنه . وله مؤلفات أهمها كتاب (بلوغ الارب في اصول العرب) وقد توفي عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) . (بغداد القديمة ـ للعلاف . والاعلام ـ للزركلي) .

عليه مختلف الدروس وشتى العلوم والفنون ويكنون له كل احترام وتقدير ٠

وهكذا فانه لم يقض في بغداد فترة طويلة الا وقـرر الرجوع الى استانبول ٠ وفي عام ١٣١٣هـ ١٨٩٥م سافر من استانبول الى مصر مرة اخرى ثم رجع منها الى بلاد الشام والعراق حيث استقر به المقام اخيرا في بغداد ٠

وبذلك يكون هذا الشيخ قد امضى عمرا طويلا في الدرس والتتبع والتدريس والمساهمة في الحركات السياسية والفكرية التي مرت بها بلاد الشرق ، متنقلا بين اقطارها ودولها ، مسافرا بين مدنها وانحائها خلال حقبة من الزمن هي في الوقت نفسه فترة قلقة من تاريخ الامة العربية ٠

في استانبول والبلاد العربية

عثمان الموصلي في عاصمة الخلافة العثمانية • احتفاء الاتراك به • اتصاله بالشيخ ابي الهدى الصيادي • دخوله قصور السلطان عبدالحميد • سفره الى مصر واتصاله بكبار رجالها • سفره الى بلاد الشام والاقطار العربية الاخرى •

سافر الملا عثمان الموصلي الى استانبول اكثر من مرة لاغراض علمية وسياحية وسياسية وكانت سفرته الاولى اليها بتشجيع من استاذه الشيخ محمد النوري ، اذ كانت استانبول آنذاك قبلة الانظار ومحطة الآمال وكعبة القاصدين في الشرق كله • وفي استانبول اقام الملا عثمان اول الامر في غرفة في جامع نور العثمانية الكائن في حي (شنبرلي طاش) • ثم لم يلبث فترة الا وعلم الناس بوجوده فاخذوا يتوافدون لزيارته والتمسوا منه القراءة في جامع

استانبول الشهير (أيا صوفيا) الذي كان بالاصل كنيسة رومانية • فكان يقرأ في محفل الجامع ، وسمع القوم هناك ما لم يسمعوه من قبل ، وآثر جمال صوته وروعة تجويده في مشاعرهم فأبكاهم • واتم قراءة جزء كامل من القرآن في الجامع المذكور • وهرع اليه فضلاء المدينة وادباؤها وفنانوها حتى طارت شهرته في الآفاق واصبح مقصدا للمجتمع الادبي والفني ، والتف حوله قراء الاتراك فاخذوا عنه ما يتعلق بفنون التجويد • وتعرف عليه عظماء الناس وكبارهم وامراؤهم ، وتاق لرؤياه كل من سمع بذكره • ولما رأى ما وصل اليه حاله من عز وتقدير ، طابت له الاقامة هناك فاستحضر عائلته من الموصل واستأجر له دارا واقعة بجوار جامع نور العثمانية في الحي نفسه ، فقضى فيها اعواما طويلة محترم الجانب منعم البال ، في بحبوحة من العيش بما يغدقه عليه رجال الدولة العثمانية والمعجبون به في عاصمة الامبراطورية •

وكان لوجود احمد عزة باشا العمري صديقه القديم وابن مربيه في استانبول اثر كبير في تعريفه بالنخبة من الناس • وكان كثير الالتقاء به والتردد عليه طيلة وجودهما في استانبول كما وان صلته بالزعماء والادباء العرب المقيمين في العاصمة العثمانية كانت وثيقة حيث تشدهم الى بعضهم رابطة العروبة • ومن هؤلاء النواب العرب في مجلس المبعوثين العثماني امثال محمد الآلوسي وشاكر الآلوسي وعلاء الدين الالوسي والشيخ يوسف السويدي والسيد محمد السكوتي والسيد ابراهيم الراوي شيخ الطريقة الرفاعية في بغداد وحسام الدين الالوسي وغيرهم من الذين هاموا بمواهبه وفنونه وكانوا يطلبون منه مرافقته لهم في اسفارهم من استانبول واليها عندما كان يقوم بجولاته بين الاقطار الاسلامية •

واهم شخصية تعرف عليها الملا عثمان في استانبول هو الشيخ السيد

محمد ابو الهدى الصيادي[1] الذي قربه اليه والحقه بمريديه • واخذ

---

(١) هو السيد محمد ابو الهدى بن حسن وادي شيخ الرواق العالي الصيادي • وينتسب الى القطب الجواد سبط الامام الرفاعي السيد عزالدين أحمد الصياد الذي يرتقي نسبه الى الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق • وقد ولد عام ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) في قرية شيخون من أعمال معرة النعمان قرب حلب • وتلقى العلوم العقلية والنقلية على أفاضل العلماء • ولبس الخرقة الصوفية من يد والده ، ومنح اجازتين بالطريقة الرفاعية • وبعد اكمال دراسته سافر الى استانبول ونشر فيها الطريقة الرفاعية وانتسب اليه كثير من الناس • وبعد عودته الى حلب تولى نقابة الاشراف فيها • وفي تلك الاثناء كان يسافر الى استانبول ويترقى في المراتب العلمية حتى بلغ خبره مسامع الخليفة العثماني السلطان عبدالحميد فاحضره لديه وعطف عليه وقلده مشيخة المشايخ في الدولة العثمانية والحقه الى رتبة قضاء العسكر التي هي أعلى المراتب العلمية آنذاك ، واصبح له نفوذ كبير في قصر الخليفة العثماني وقد كان مسموع الكلمة مهاب الجانب • ولما خلع السلطان عبدالحميد نفي الشيخ أبو الهدى الى جزيرة الامراء فمات فيها وذلك عام ١٣٢٨هـ (١٩٠٩م) وقد ألف كتباً كثيرة في العلوم الفقهية والتصوف • وله شعر جيد من النوع التصوفي نذكر منه الابيات التالية المقتطفة من قصيدة طويلة له كمثال لشعره :

قلب المحب بحبه مشغول	وله عليه تلهف وعويل
لا زال يطويه الهيام على لظى	وجد وينشره ضنى وذبول
يا لائمي واللوم ليس بنافع	أيصد عن طلب الحبيب عذول ؟
دع لوم أهل العشق واطرح عذلهم	ان العذول بشأنه مخجول
ولقد تزيا بالغرام واهله	ذو ريبة في زيّه مخذول
ردته بيّنة المحبة خاسئاً	وشهود أحكام الغرام عدول
ذو الصدق في سوح المحبة ثابت	واخو الرياء مع الضلال يميل
قد يدعي الحب الملحّ كويذب	والعاشقون الصادقون قليل
ولكم تباكى المدعون وما بكوا	ودموع أصحاب الولوع سيول
ولربما سكت المحب لفكره	فيمن يحب وعقله مذهول
يا من ولعت بهم وطبت لذكرهم	رفقاً فقلبي للصدود عليل
لو زال رضوى وانتحى عن أرضه	حاشاي عنكم يا كرام احول
ما قلت اصحو من سلافة حبكم	الا اعتراني سكرة وخبول

(عن العقود الجوهرية للعمري والاعلام للزركلي) •

الملا عثمان عنه الطريقة الرفاعية ثم فتح امامه آفاقا جديـدة بتقديمه الى السلطان عبدالحميد الخليفة العثماني ٠

الصلة بين الملا عثمان والشيخ ابي الهدى الصيادي :ـ

عرف عن الشيخ الصيادي انه كان يميل الى الموسيقى ويعشق الالحان فلا يكاد يسمع عن وصول احد اعلام الفـن والموسيقى الى استانبول الا ويدعوه الى بيته ويكرمه غاية التكريم ويقدمه الى رجال الدولة ، فعل ذلك مع الموسيقار المصري المعروف عبده الحمولي عندما قدم الى استانبول عام **١٨٩٦**م حيث تعرف عليه واكرمه واوصله الى السلطان عبدالحميد ٠ وفعل الشيء نفسه مع المطرب الياس عبود ٠ وهو من كبار المطربين في حلب حيث كان في استانبول ينزل ضيفا على الشيخ المذكور ٠ وهذا ما فعله ايضا مع الملا عثمان الموصلي ولكن بشكل أوضح وأشد ٠

ولا شك ان هناك اكثر من رابطة جمعت بين هذين الرجلين ٠ وكان اتفاق ميولهما وتعدد نقاط الالتقاء بينهما مما ساعد على زيادة التقرب وتوثيق الصلة بينهما فمن ذلك ميل كل منهما الى الشعر والموسيقى والتصوف ٠ وكانت المودة بينهما تتجلى واضحة كلما التقيا في مجلس او ندوة فسرعان ما يظهر الانسجام في حديثهما ٠

وكان الشيخ الصيادي معجبا بالملا عثمان ويبدي له الكثير من الـود والمحبة ، ويجل قدره ويعظم مواهبه حتى انه في مجلسه الذي يقصـده كبار القوم وعظماؤهم كان لا يسمح لاحد من ضيوفه مهما علا شأنه بالتدخين في حضرته الا للملا عثمان فقد سمح له بالتدخين في مجلسه وكان يتبسط معه بالحديث ويستمتع بفصاحته وطرائفه وفنونه ويستوحش لفراقه وينتظر زيارته له بفارغ الصبر ٠ وكانت بينهما مواقف شعرية وفنية فقد زار الملا

عثمان مرة الشيخ الصيادي في تكيته وذلك عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٣م) فوجده قد انتهى من تأليف رسالة اسمها (خلاصة البيـان) فسكت قليلا ثم قال مرتجلا يؤرخها :

والموصـلي مرتجـــلا ارخهـا   خلاصة البيـان مجـدنا بهـا

واجتمع الملا عثمان بالشيخ الصيادي في مجلس انس وطرب فجادت قريحة الصيادي بنظم بيتين من الشعر فقال :

قلت لما خفـــق القلـب جـوى   حين شامت قرطك الخفاق عيني

كنـــت لا تملـــك الا خافقـا   فهنيئا لـــك ملـــك الخافقيـن

فبادر الملا عثمان على البداهة فلحنهما وغناهما مـن نغم الحجازكار فطرب الصيادي وبكى من روعة الصوت وجمال اللحن[١] ٠

وقد توطدت العلاقة بينهما على مرور الزمن حتى ان الشيخ الصيادي منح الملا عثمان اجازة التصوف واسبغ عليه من نعمائه واوصله الى السلطان عبدالحميد الثاني[٢] الذي ادخله الى قصره وسمح له بالدخول الى قصر الحريم الامر الذي لم يسمحه لغيره وهو امتياز وشرف عظيمان في ذلك الوقت الذي قل من نال فيه شرف المثول امام الخليفة الذي هو ظل الله في الارض والحاكم الذي ترتعد من هيبته الرجال ٠

ولدخول الملا عثمان الى قصور الخليفة السلطان عبدالحميد قصة طريفة

---

(١) عن كتاب أعلام الادب والفن لادهم الجندي ٠

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني بن السلطان عبدالمجيد : وهـو الخليفة السادس والعشرون من خلفاء العثمانيين ولد في أيلول ١٨٤٢م وبقي في الحكم ٣٣ سنة واشتهرت أيامه بالبذخ والترف ٠ وقد كان قاسياً مغرماً بالنساء وحكم البلاد حكماً فردياً استبدادياً أدى الى ضعف الدولة العثمانية وبالتالي سقوطها خلال الحرب العالمية الاولى ٠ وتوفي في مدينة مغنيسيا في شباط ١٩١٨م ٠

نتركه يحدثنا بها كما رواها بالحرف احد الثقاة المقربين اليه[1] • قال الملا عثمان : بعد سفري الى استانبول كنت اتردد على حانوت احد التجار الموصليين المقيمين هناك فجاءني مرة احد رجال الشرطة العثمانية واقتادني لأمر مهم في قصر السلطان عبدالحميد فمضيت معه منصاعا حتى اقتربنا من القصر وانا اسمع صوت جلبة الحرس والجند وصرت ادخل اماكن مختلفة يقودني من يدي رجل ثم لم البث ان وصلت جانبا يخيم عليه السكون وهناك ادخلت قاعة يسودها الصمت التام فاجلست على كرسي فيها وبقيت ساكنا مقدار ساعة من الزمن واذا بي اسمع وقع خطوات هادئة تتجه نحوي ثم سمعت حفيفا كأن ستارة كبيرة تطوى عني ثم صوتا لطيفا يخاطبني باللغة التركية : حافظ افندي اقرأ • فوجمت ساكتا لا ادري ماذا افعل ثم يعود الصوت يكرر القول نفسه فلبثت دون حراك • ولما لم اجد ما اقوله سمعت صوت الستارة وهي تنشر دوني وسمعت وقع اقدام تبتعد عني ثم لم البث ان وجدت اناساً يقبلون علي وهم يعنفونني قائلين : كيف فعلت ذلك ؟ لماذا لم تقرأ لجلالة السلطان وقد طلب ذلك بنفسه ؟ سامحك الله ايها الشيخ • ثم اقتادوني الى خارج القصر لأجد نفسي في الشارع فذهبت الى سبيلي •

وبعد ايام من ذلك ذهبت يوم الجمعة الى جامع أيا صوفيا وقرأت القرآن في المصلين بصوت خاشع اعجب به الناس كثيرا وطربوا له واخذتهم الخشية حتى ختمت تلاوتي وفرغنا من الصلاة فانصرفت لازور صديقا لي • ولم اكد اجلس عنده الا وشرطي يبلغني بوجوب حضوري لمقابلة جلالة السلطان في قصره • فرضخت للامر واقتادوني كما فعلوا في المرة الاولى • وعندما دخلت القاعة الكبيرة كان السلطان فيها يعنفني على معصيتي له بعدم القراءة امامه في المرة السابقة بينما قرأت في الجامع من تلقاء نفسي دون

---

(١) وهو الاستاذ فائق الحاج ابراهيم دلال باشي وهو أحد الذين التقوا بالملا عثمان اذ كان هذا ضيفاً في دار أبيه عند رجوعه من استانبول •

ان يطلب ذلك مني احـــد فلم يكن مني الا ان أجبتــه قائــلا : لم تكن معصية يا جلالة السلطان ولكنها هيبة الملك اخرست لساني • فسر لجوابي هذا ووجدته يأمر من يدس بجيبي مبلغا من الليرات الذهبية العثمانية • ثم تكرر لقائي به وتلاوتي امامه •

واخذت مرة الى القصر السلطاني غير انهم ادخلوني هذه المرة من مداخل غير الاولى وبدأت الايدي تقتادني وتسلمني الى أيدٍ اخرى وقد تعددت واختلفت بين يد خشنة ثم يد نسائية ناعمة ثم يد غلام وهكذا الى ان وصلت الى موضع قيل لي انني اصبحت في قصر الحرم السلطاني • ثم امرت ان اقرأ بعضا من القرآن الكريم • فتهيأت للقراءة وانا اعلم ان النساء عامة يتأثرن كثيرا لسماع سورة مريم ويرغبن سماعها • فطفقت اقرآ هذه السورة الكريمة بصوت مؤثر ثم لم ألبث ان سمعت صوت نحيب حولي ثم اشتد النحيب والبكاء فختمت عندئذ القراءة • وبعد برهة وجدت يدا تندس الى جيبي لتسقط فيه انبوبا ورقيا قـد صفت داخـله ليرات ذهبية متراصة • وجاءني من يخبرني ان السلطان عبدالحميد اذن لي ان ادخل الى قصوره متى أشاء بدون استئذان • وكان ذلك شرفا عظيما في وقت قل من الناس من يحلم فيه برؤية السلطان او التكلم معه او حتى مجرد ان يقترب من قصره •

وظل الملا عثمان مقربا من البلاط في استانبول وكان في موضع عناية الخليفة العثماني حتى انه كان يعتمد عليه شخصيا في ايفاده الى بعض انحاء الامبراطورية العثمانية لاغراض سياسية وكان يخطب في الحج باسم السلطان عبدالحميد بتخويل منه •

وقد بقي الملا عثمان في استانبول فترة طويلة تزوج خلالها هناك حيث كان يعيش منعما مترفا خلي البال وربما كان جديرا به ان يظل هناك لولا حنينه الى وطنه ونظرته بتألم واسى الى الحالة التي وصلت اليها البـلاد

العربية على زمن العثمانيين فكان يترك استانبول وترفها ونعمائها ويقفل راجعا الى بلاده ليقضي فيها فترة من الزمن يطمئن بها عليها ويجدد صداقاته وذكرياته فيها .

اما اسفار الملا عثمان الى البلاد العربية ومنها مصر فقد تعددت ايضا . وكانت مصر ارقى البلاد العربية حضارة وهي تنافس العاصمة العثمانية بتقدمها وعلومها . وعندما وجد الملا عثمان نفسه بحاجة الى المزيد من الدرس والاطلاع شد الرحال الى القاهرة لاكمال دراسته للقراءات العشر والعلوم الاخرى المتعلقة بها واتصل بكثير من شيوخها وعلمائها واساتذة الموسيقى فيها وكان يجتمع معهم في محافل كبيرة وينازل اقطابهم في ترتيل القرآن والموشحات والموسيقى والشعر ويتفوق عليهم في مباريات لطيفة يخرج منها مرفوع الرأس كريم الجانب حتى فاز باعجابهم ومحبتهم له وازداد اصدقاؤه وعارفوه .

وفي سفرته الثانية الى مصر عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) بقي فيها ما يقارب الخمس سنوات (حتى اوائل عام ١٣١٨هـ) من دون ان يغادرها وكان يقابل خلالها بالتعزيز والتكريم والتف حوله الادباء والمعجبون به وعلى الاخص آل الرافعي وهم عائلة عريقة حيث نزل في ضيافتهم ولقي من جانبهم التكريم والاحترام .

ومن كبار الشخصيات التى التقى بها في مصر شيخ الاسلام محمد العباسي المهدي المصري الذي توفي اثناء وجوده في القاهرة وكان حاضرا وفاته فنظم في رثائه القصائد الرنانة وارخ وفاته بقصيدتين احداهما القصيدة النونية وعدد ابياتها احد عشر بيتا مطلعها :

من الدين هدّ الخطب اعظم اركان   هو المقتدي مهدي فضل وعرفان

وضمن تاريخ وفاته فيها بقوله :

مراحم ربي قابلته فأرخت   قضى نحبه المهدي بعلم وايمان

والاخرى عدد ابياتها خمس وعشرون بيتا ضمن الشطر الاول من جميع ابياتها تاريخا للسنة الميلادية ١٨٩٧م • وضمن الشطر الثاني من ابياتها تاريخا للسنة الهجرية ١٣١٥هـ ومطلعها :

نعم سعد المهدي بجنات رضـــوان   وسيّر في الاحشا توقد نـيران[١]

وفي مصر التقى بالمطرب الموسيقار عبده الحمولي وغيره من رجال الموسيقى والفن الذين اقبل كثير منهم عليه يدرسون فنون الموشحات والموسيقى • وفي مصر ايضا طبع بعض مؤلفاته فقد كان الرجل شعلة من النشاط دائب الحركة كثير العطاء •

ومن البلاد العربية الاخرى التي زارها الملا عثمان وقضى فيها ردحا من الزمن سورية ولبنان ويبدو أنه زارها اكثر من مرة وكان يقضي فيها مدة ثم يغادرها الى بلاد اخرى • فقد زارها قادما من استانبول عام ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ) وقضى فيها ما يقارب الثلاث سنوات ثم تركها متوجها الى مكة المكرمة لاداء مناسك الحج وكان ذلك عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) بقطار سكة حديد الحجاز الذي تم افتتاحه قبل سنة من ذلك التاريخ[٢] • وقد كانت وقفة عرفة في تلك الحجة توافق ٢٢ كانون اول عام ١٩٠٩م ثم عاد من الحج بالقطار ايضا متوجها الى الشام ليقيم فيها فترة اخرى حيث التقى خلالها بنابغة الموسيقى المصرية سيد درويش الذي تعرف عليه هناك • وجاء الموسيقار المصري الى الشيخ عثمان ليدرس عليه الموشحات وفنون الموسيقى مدة طويلة يعود خلالها الى مصر ثم يرجع ثانية الى الشام ليستأنف دروسه على استاذه الشيخ عثمان الذي كان لا يزال مقيما هناك •

---

(١) مجلة الجزيرة العدد ١ ، ٢ عام ١٩٤٧ •

(٢) احتفل بافتتاح الخط المذكور رسمياً في المدينة المنورة في أول شعبان ١٣٢٦هـ الموافق ٢٨ آب ١٩٠٨م •

وفي الشام اتصل الملا عثمان بكثير من الادباء والعلماء والاعيان ثم طفق يتنقل بين مدنها • وسافر الى بيروت فاقام فيها ثلاثة اشهر رجع بعدها الى دمشق ليقوم بتخميس لامية البوصيري والتى اطلق عليها اسم (الهدية الشامية على القصيدة اللامية) • وكثيرا ما كان يرى في الجامع الاموي بدمشق وهو قائم فيه يخطب بين الناس وقد التفوا حوله •

ويروى انه حضر في دمشق حفلة ختان اولاد المرحوم عبدالرحمن باشا اليوسف وقرأ المولد النبوي في الاحتفال فمنح عليه مائة ليرة ذهبية[1] • وكان الشعراء قد اجتمعوا ينشدون القصائد في مدح عبدالرحمن باشا وتهنئته • وبعد ان انتهوا من ذلك انبرى الملا عثمان ينشد قصيدة في كل واحد من اولاده يؤرخ فيها تاريخ ختانه على انفراد • وكانت قصائد طويلة نذكر مطلعها والبيت الاخير المتضمن تاريخ الختان فيها • فقد قال في ولده محمد سعيد اليوسف :

خليـــلي ادر لي كؤوس الطـــلا   وزمزم بمـــا يطـــرب البلبـــلا
اذا اليـــمن غنى لنـــا ارخـــوا   (ختان محمد سعيد حلا) ١٣٢٦هـ

وقال في ولده عمر اليوسف :

ظبـــي كحيـــل ذو حـــور   بدا فاخجل القمر   ١٣٢٦هـ

وقال في ولده احمد راتب :

دارت بنا الاكـــواب كالكواكب   وزفها الســـاقي لخـــير شـــارب
شمس المعالي انشـــدتنا ارخـــوا   (هدى العلى نسبة احمد راتب) ١٣٢٦هـ

وقال في ولده حسن سامي :

---

(١) أعلام الادب والفن •

طائر الاقبال بالافراح بشر　　حين غنى بلبل البشر وصفّر
طالع السعد لنا ارخه　　(حسن السامي من اللاش تطهر) ١٣٢٦هـ

ثم هنأ عبدالرحمن باشا اليوسف بقصيدة اخرى كان بيت التاريخ فيها قوله :

ونغني بأطيب اللحن ارخ　　مجد عبدالرحمن خير (لبالا)

وفي هذه الحفلة طلب منه وجهاء القوم ان يغني فاخذ القانون وعزف عليه فتجاوز بعزفه الساحر حد الابداع ثم ترنم بصوته الشجي فانشد موشح ابن سهل الاسرائيلي وهو :

ياليالي الوصل في نادي الصفا　　هل لك اليوم الينا من رجوع

فاجاد واطرب وامتزج صوته بلحن العزف امتزاج القراح بالراح .

وكان المرحوم محمد باشا العظم الدمشقي وزيرا للاوقاف ورئيسا لجلس النواب العثماني فكان معجبا بهذا الشيخ العبقري المتفنن وبالرغم من كثرة مهامه الرسمية لا ينقطع عن الاجتماع به والتمتع بادبه وفنونه .

اسفاره في البلاد الاخرى : كان الشيخ الملا عثمان كثير الاسفار والتنقل في البلاد العربية والاسلامية فما كاد يرجع من سفر الا ويزمع على سفر الى جهة اخرى فكان قد سافر الى استانبول وبلاد الشام ومصر والحجاز عدة مرات حتى ان سفراته المتعددة هذه تجعل من الصعب على الباحث تتبعها او ضبط تواريخها بصورة دقيقة .

كما انه سافر الى اقطار اخرى منها ليبيا وكان سفره هذا ذا مقصد سياسي فقد اوفده السلطان عبدالحميد الى طرابلس الغرب لعجم عود الامام السنوسي وسبر اغوار مقاصده السياسية فاحس هذا بالغرض من مجيء الشيخ عثمان فاكرم مثواه واحسن اليه ثم جهزه خير تجهيز فعاد أدراجه الى استانبول .

وذكر صاحب مجلة اليقين في عدد شباط ١٩٢٣ ملمحا عن سفر الملا عثمان الى اليمن غير ان ذلك لم يذكره غيره من الكتاب ولا الرواة الذين بحثوا في تاريخ حياته • وربما كان قد سافر اليها يوما ما فاطلع كاتب المقال في تلك المجلة على ذلك فكتبه في مقاله •

ويذكر الحاج محمد العقيل احد وجهاء البصرة بان الملا عثمان قام خلال احدى جولاته بزيارة الزبير وهي بلدة صغيرة قرب البصرة وبقي فيها مدة لقي خلالها الكثير من الحفاوة والتكريم وانه عمل هناك على نشر فكرة الطرق الصوفية وقام بتنظيم حفلات للموالد والتواشيح • فساهم بذلك في رفع مستوى فن المقامات والموشحات في تلك المنطقة بعد ان كانت خاملة او معدومة فيها •

وربما كانت للشيخ سفرات اخرى الى جهات غير ما ذكرنا الا اننا لم نعثر على المصادر او الثقاة الذين يروونها لنا فبقيت مجهولة لدينا ونأمل ان تتضح لنا يوما ما •

التقاء بين القرآن والدين والموسيقى

القراءات والمقرؤون الاولون • اشهر قراء الموصل • نبوغ الملا عثمان في قراءة القرآن وتجويده وقراءة الموشحات والموالد • الملا عثمان مدرسة كاملة لنظم الموشحات وتلحينها وانشادها • ما هي الموشحات وما هو أصلها ؟ اشهر تلاميذه في قراءة القرآن والموشحات • ما هو موقف الدين من الغناء والموسيقى وما علاقته بالالحان ؟ استعمال الموسيقى في العبادة قديماً • التعريف بالتصوف • المولوية وكيف نشأت وصلة الملا عثمان بها •

ان البيئة الدينية لها أثر كبير في التوجيه الاجتماعي والادبي والفنيّ للشعوب الاسلامية عامة • ومن ذلك نشوء فنون مختلفة لها صلة بالدين مثل فن أداء كلمات القرآن وهو الذي يعبر عنه بعلم القراءات والذي كان فيه علماء اختصاصيون منذ القديم يتلقونه ثقة عن ثقة واماماً عن امام الى النبي (ص) •

وقد اشتهر بالاقراء منذ فجر الاسلام سبعة من كبار الصحابة وهم :

عثمان وعلي وأُبي وزيد بن ثابت وابن مسعود وابو الدرداء وابو موسى الاشعري • وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين هذا العلم • ثم جاءت بعدهم طبقة من القراء الذين يعتبرون أئمة في هذا العلم وهم القراء السبعة الذين تنتسب اليهم القراءات الى هذا اليوم وهم : أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وعبدالله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠هـ ونافع بن نعيم المتوفي سنة ١٦٩هـ وعبدالله بن عامر اليحصبي المتوفي سنة ١١٨هـ وعاصم بن الاسدي المتوفى سنة ١٢٨هـ وحمزة بن حبيب الزيات العجلي المتوفي سنة ١٥٦هـ وعلي بن حمزة الكسائي المتوفي سنة ١٨٩هـ • وقراءات هؤلاء السبعة هي المتفق عليها اجماعاً •

وقد ابتدع في القراءة والاداء التلحين الذي بقي الى هذا الوقت • واول من قرأ بالتلحين عبيدالله بن ابي بكرة وأخذ ذلك عنه حفيده عبدالله بن عمرو وقد اتصل بالرشيد فعرف بقاريء أمير المؤمنين • وقد كتب الخليفة الرشيد الى جميع الامصار والى أمراء الاجناد أن انظروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف دينار من العطاء ، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم فاكتبوه في ألفي دينار ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم فاكتبوه في أربعة آلاف دينار حتى قيل بانه لم يكن من العلماء ولا القراء في أيام بعد أيام الرسول والخلفاء الراشدين أكثر منهم في زمن الرشيد •

وقد ازدهرت مدن العراق بالمقرئين المجيدين وكانت الموصل في مقدمة هذه المدن منذ العهد العباسي واشتهرت بمدارس القرآن الكثيرة التي تدرس فيها علوم التجويد والاقراء حسب القراءات المشهورة مع التدريب على أصولها • وكان التدريس يعهد فيها الى أئمة القراءة واساتذة التجويد المشهورين حيث يجاز على ايديهم عدد كبير من الطلاب يمنحون اجازاتهم في حفل كبير كل عام •

وقد ظهر في الموصل منذ القديم قراء مشهورون توارثوا القراءة عن بعضهم ويذكر لنا التاريخ عدداً منهم كالملا سعدالدين بن محمد امين بن سعدالدين شيخ القراء وأحد ادباء الموصل المعروفين وقد أقام في بغداد وتوفي فيها ودفن في جامع الفضل •

ومنهم أيضاً السيد محمود حموشي الموصلي امام جامع مرجان في بغداد وكان مشهوراً بحسن الصوت والاداء وتوفي سنة **١٣٣٥**هـ ودفن في مقبرة الغزالي •

ومن أعلامهم الذين امتازوا بالاداء والاتقان العلامة الشيخ عبدالله الوسواسي الموصلي مدرس جامع الخلفاء في بغداد ، وكان يتمتع بصوت جميل وتوفي في بغداد سنة **١٣٣٧**هـ •

وقد عرفت الموصل منذ القديم باتجاهها الديني المحافظ • وكانت تعتز بقرائها الذين لا تخلو فترة منهم حتى كان القرن الماضي الذي ظهر فيه قطب من أقطاب هذا الفن ، وعلم من اعلامه وهو الملا عثمان الذي طغى ذكره على من سبقه من المقرئين في الموصل فضلاً عما نبغ فيه من علوم وفنون أخرى •

وقد نشأ الملا عثمان في بيئة اسلامية عريقة متمسكاً باذيال الدين ، حريصاً على اقامة شعائره منذ طفولته • وقد كان شافعي المذهب تقياً يخشع لذكر الله • وكان أول درس تلقاه في صغره هو القرآن الكريم • ولاريب ان التقدم الذي أظهره في دروس القرآن قراءةً وحفظاً وتجويداً ، والموهبة الصوتية التي امتاز بها هما من الاسباب التي دعت مربيه محمود أفندي العمري الى ان يلتفت اليه بالرعاية والتعهد فخصص له معلماً يعلمه علم القراءات وفنونها مع أصول النغم والموسيقى للاحاطة علماً بالاصوات التي يقرأ بها القرآن الكريم • وكان من الطبيعي ان ينصرف هذا الطالب النابغة الى دروسه في تلك الظروف القاسية انصرافاً كلياً تسوقه الى ذلك الرغبة الشديدة • ثم يعكف على دراسة القراءات السبع والعشر مع نمو تلك

الموهبة التي منحه الله اياها بتقدم الزمن ومتابعة التمرين حيث ازدادت عذوبة الصوت عنده وارتفعت طبقته ، حتى لم يكد يجاريه أحد في قراءة القرآن .

وكان للدروس القرآنية التي تلقاها على اساتذته في استانبول ومصر أثر بيّن في علو كعبه في فن التجويد حتى اضحى ولم يكن له نظير بين قراء العراق والبلاد الاسلامية الاخرى وذلك لجودة الاداء وروعة الصوت فهو يملأ النفوس ويستفز الشعور لاسيما عند ادائه المعاني حقها كأن يهول حيث يجب التهويل ، ويتلطف حيث يجب التلطف ، ويستبشر عندما يتلو آيات البشائر ، ويخشع وجلاً لذكر الله حينما يتلو آيات الوعيد والعقاب ، ويعطي كل آية ما يناسبها من النبرات الصوتية ، ويقف اوقافاً جميلة تظهر معنى الآيات فكانما هو يفسّرها بهاتيك الاوقاف مما لا يعقله الا العالمون بمعاني التنزيل ومواقع الكلام . وكان يقرأ القراءات العشر بتفريع وتنقل يدهش السامعين في وقت قل ان يوجد فيه من يقرأ القراءات المذكورة . والتفريع هو خروج المقريء من قراءة الى قراءة والعودة اليها .

وكان الشيخ عثمان قارئاً ومقرئاً . والقاريء هو من اتقن القراءة وأداها كما تلقاها . والمقريء هو استاذ القراءات ، العالم بها والمدرس فيها ، وله وحده صلاحية الاجازة بها والاخذ عنه في علومها . وكان امراً مألوفاً ان يتزاحم الطلبة من دارسي القرآن الكريم حول الشيخ عثمان لينهلوا من معينه ويدرسوا عليه علوم قراءات القرآن كالتلاوة والتجويد بما في ذلك من بيان مخارج الحروف والادغام والمد والاخفاء والاظهار والاقلاب والاشمام والامالة والغنّة والقلقلة ومطالب أخرى كالنبرات والترقيق والتفخيم والسكت والوقف والوصل ، ثم التوسع في ذلك بدراسة القراءات السبع والعشر والانغام والمقامات التي يمكن أن يقرأ القرآن باصواتها . وقد تولى تدريس ذلك في مدن كثيرة أهمها ما كان في بغداد في جامع الخفافين وجامع المرادية . وكان عدد هؤلاء الطلاب أكثر من ان نستطيع عدهم

واحصاءهم ، عرفنا قسماً منهم من كتب السير ، وقسماً مما اخبرنا به المطلعون أو الطلبة انفسهم ممن قرأ على الشيخ عثمان كالاستاذ محمد بهجة الاثري فقد ذكر عن نفسه بانه درس عليه في أوائل عام ١٣٣٨هـ (قبل نصبه شيخاً للقراء) علم القراءات السبع •

غير أن اشهر تلاميذه في دروس القرآن ممن نال الاجازة عليه في القراءات العشر هو شيخ القراء في الموصل الشيخ محمد صالح الجوادي(١) الذى تخرج عليه جيل من القراء • ولا يزال حتى الآن مشتغلاً في تدريس كتاب الله الكريم • وكان ذلك بعد رجوع الملا عثمان من مصر حيث درس عليه ومنحه الاجازة وكان يظهر له حباً عميقاً حتىان الاجازة المذكورةافتتحها بمقدمه طويلة جاء فيها : (اما بعد فلما ساقتني الاقدار لزيارة اوطاني والديار ، واسعدني الأجل لبلوغ ذلك الامل ، تشرفت بقرائها بعد المثول بانحائها فرأيتهم بالتقوى والرفعة ، محبين على روايتهم طريق السبعة ، من طريقي الشاطبية والتيسير ولم يكن أحد منهم آخذاً بطرق النشر والتحبير ، فرأيت من اشدهم اقداماً واجدهم عزماً والتزاماً ، الشاب المنيب الخاضع ، والورع النجيب الخاشع ، من شمل صلاح حاله اسمه فصار عليه سمة ووسمة ، الا وهو سمي محمد ، الصالح ابن الصالحين أباً وجداً ، والمعتنق بالتحصيل جد داً وجد ا ، اتاني فقرأ علي من طريق النشر مع التحبير من كتاب الملك القدير، فرأيته والله قد روّى بقواعد القرآن عين فؤاده ، اذ رجحها على مائة

---

(١) الشيخ محمد صالح الجوادي : ولد عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) من عائلة دينية في الموصل ونال الاجازة العلمية على الشيخ الحاج محمد الرضواني • ثم درس القرآن الكريم وحصل على اجازة القراءات العشر على الشيخ الملا عثمان عام ١٣٣١هـ (١٩١٢م) وعكف منذ ذلك الوقت على تدريس القرآن الكريم في المدارس الدينية في الموصل • وقد عرف عنه بانه خير من يضبط القراءة • وهو يتمتع بصوت جهوري يسيطر على السامعين • ولا يزال مستمراً على التدريس ، متفرغاً للتلاوة المباركة حتى هذا الوقت • (تاريخ علماء الموصل ج ١) •

وزاده • ولأجل ان لا أمنع الخير أهله ، أوردته من عذب طريق العشرة نهله ، مجيزاً اياه بما رويته من وجوهها المسفرة ، عن الكرام البررة ، راجياً ان يعم في بلدي الغالي نفع كتاب الله العالي) •

واستمرت الاجازة على هذا الاسلوب من التقديم والتكريم حتى ختمها بالكلمات الآتية وارّخها بالبيتين التاليين مختتماً بهما الاجازة : (ولما تمت منّة ربي عليّ ، ومدت موائد احسانه الي باجازة هذا الورع التقي ، المرجو له الاستقامة ارختها لتكون لوقتها علامة :

أجزت للعشرة عبداً صالحاً   بما رويته واني رابح
موائد الذكر له قد أرّخت   اجيز بالعشرة صفح صالح)

أما الطلاب الآخرون الذين تتلمذوا عليه في دروس القرآن الكريم وتلاوته فقد توسعوا في موضوع الانغام وقراءة الموالد النبوية التي يطلق عليها في العراق اسم التواشيح أو التنزيلات •

ما هو أصل التواشيح والتنزيلات والمدائح ؟ :ـ

ان التواشيح وما جاء على معناها من فنون القراءة ذات الانغام المعروفة والكلمات البسيطة المنظومة هي في الاصل ناشئة عن تطور الموشحات الاندلسية التي ابتكرها مقدم بن معافر الفريري وهو من شعراء الامير عبدالله بن محمد المرواني في الاندلس[١] والتي وجدت وتطورت في بلاد الاندلس اثناء التقدم الذي طرأ على الحياة الاجتماعية هناك حيث انتشرت الاغاني في المجالس والبيوت فاضطرهم ذلك الى نظم الاشعار الرقيقة التي يسهل غناؤها وهي ذات الاوزان القصيرة والقوافي المختلفة حتى يكون اثرها اوقع في النفس والذ للسمع فخرجوا عن الاوزان المعروفة والقوافي

(١) مقدمة ابن خلدون •

المألوفة كأن يكون الموشح اسماطاً واغصاناً يكثرون من اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً يشتمل على اغصان يختلف عددها بحسب الاغراس والمذاهب وكانوا يخصونها للنسيب والمديح ٠

وانتشر هذا النوع من الشعر الملحن بالالحان الخفيفة في بلاد الاندلس وانتقل منها الى بلاد المشرق ثم تطور واختلفت اغراضه حتى استعمله الفقهاء في المواعظ والحكم وكذلك المتصوفون في الابتهالات والتوسلات ومنهم الشيخ محي‌الدين بن عربي الذي ألف كتاباً اسمه (التنزلات الموصلية) وكان ذلك في الموصل في الجامع النوري ٠ كما اتخذه فئة من المنشدين لمدح الرسول وذكر سيرته وقصة مولده في المناسبات الدينية والاجتماعية مما أطلق عليه اسم المدائح أو الموالد النبوية أو ما يسمى بصورة عامة بالتواشيح أو التنزيلات أو الاذكار ٠

ويكاد الملا عثمان ينصرف في اشعاره وقصائده لمدح الرسول وآل بيته حتى انه ألّف كتباً في ذلك فلا عجب ان يكون من شعراء الموالد النبوية والموشحات بل انه يعد من ابرز قراء الموالد في العراق ويعد معلماً في هذا الفن خلال فترة طويلة من تاريخ الموصل والعراق عامة ٠ وقد ذكر ان له ما يزيد على الخمسين موشحاً جميعها ذات الحان رائعة ٠ وكان ينظم الموشحات ثم يلحنها ثم يقرؤها في المجتمعات والحفلات ثم يلقنها لطلابه ومريديه ٠ حتى اعتبر مدرسة كاملة في فن الموشحات لا يضارعه فيها أحد ٠ فكان الناس قد تعودوا ان يسمعوا بين حين وآخر موشحاً جديداً من نظم الملا عثمان وتلحينه ٠ وكانت هذه الموشحات تتهاداها البلاد العربية في ما بينها مع قوافل المسافرين فالموشح الذي تسمعه اليوم في الموصل تسمعه بعد شهرين في دمشق أو البصرة أو غيرها ٠

وقد كانت قراءة الموشحات والموالد النبوية في جميع العراق خاملة متأخرة قبل مجيء الملا عثمان وكان القراء بل المغنون والمنشدون عامة خاملين

جاهلي الفن والصنعة لا يعرفون سوى الاسترسال في نغمة واحدة يكررونها الى النهاية حتى تكاد تزهق من سماعهم الارواح كما ذكر ذلك أحد الادباء المتقدمين عندما وصف قراءتهم وغناءهم • وكانوا في ذلك يبعثون على الملل حتى تأخرت الفنون ولم تبق ثمة أهمية للغناء أو الانشاد أو الموسيقى واصبح الاشتغال بها أمراً مخجلاً وغير مرغوب فيه • ولكن ذلك لم يبق طويلاً اذ تداركه الابداع والتجديد الذي عرف على زمن الملا عثمان • حتى اصبح الانشاد والغناء فناً جميلاً يمثل الاصالة عند العراقيين وأصبحوا يعيرونه من الاهمية ما يستحق وامسوا اذا سمعوا بالملا عثمان يقرأ في بيت أو مجلس انسلوا اليه من كل حدب وصوب وتدافعوا بالمناكب لسماعه حتى يضيق بهم المكان على سعته •

وظهرت فئة من الناس يهتمون بالموشحات التي ينظمها الملا عثمان فكانوا يسجلونها على الورق ويحتفظون بها وقد استطعنا عن طريق هذه الاوراق المتناثرة ان ندون قسماً من هذه المنظومات في هذا الكتاب كما ان قسماً آخر لم نعثر عليه وانتهى به الامر الى الضياع والعدم دون شك •

ونذكر من الموشحات أو التنزيلات الجميلة التي نظمها الملا عثمان التنزيلة التالية :

لم يزل دمع عيوني	هاطلاً طول الزمن
آل طه أوصلوني	دمت في فرط الحزن
بان في الوجد سقامي	ذاب جسمي في الهوى
فيكم هاج غرامي	نجم صبري قد هوى
يا بني الهادي التهامي	عنكم طال النوى
فارحموا الصب وداووا	القلب من نار الشجن
ايها العاذل مهلاً	لست اصغي للملام
انا دأبي حب ليلى	منذ ناهزت الفطام

فلكم أمضيت ليلاً لم يذق جفني المنام
قيدتني في هواها مذ رمتني في المحن
أيها القلب تأمل بادعاءٍ ومقال
يسوى آل المفضل لم تنل حلو الوصال
بهمو لذ وتسربل راجياً فيض النوال
عبدكم عثمان يحظى بالاماني والمنن

وعلى عادة المتصوفة يذكر في هذه المنظومة اسم (ليلى) كرمز للمحبوب أياً كان ويقصد به هنا آل الرسول • وسيرد ذلك أيضاً في التنزيلات التالية وهي مما اطلعنا عليه عند هواة الموشحات في الموصل وقد تناقلوه ارثاً عن بعضهم • وكذلك عند الادباء الذين يعتنون بجمع هذه الموشحات وتدوينها كالاستاذ محمد صديق الجليلي وقد نشر بعضها في بحثه عن التراث الموسيقي في الموصل منها التنزيلة التالية وهي على نغم العشيران :

المح برقاً لاح من أرضكم ام ثغر ليلى بان لي مبتسم
يا آل طه قد غدا عبدكم مضنى عن الاشواق لا ينثني
يا عاذلي في حبهم خلني
جمرة قلبي جففت عبرتي حتى استحالت عن دم مقلتي
يا آل ليلى همت من لوعتي منكم وقد ذبت وجسمي فني

وكذلك العشرات من هذه التنزيلات أو الموشحات وقد وضع لها الحاناً مختلفة • منها تنزيلة على نغم الراست مطلعها :

بلغ سلامي لسيد الاكوان واشك لهم يا صاح حالي

ومنها تنزيله على نغم حجاز مطلعها:

هيمتموني يا آل ليلى لا تحرموني ان رمت نيلا

ومنها على نغم الراست مطلعها :

يا آل طـــه فيـــكم قد هـام المضنى يرجوكم

ومنها على نغم حجاز مطلعها : (من لصب بالهجر مرمى) • ومنها على نغم حجاز أيضاًمطلعها : (يا عترة طه بكم الصب متيم) • ومنها على نغم صبا مطلعها : (خفت البلوى دوم نفرح) • ومنها على نغم بياتي ديوان مطلعها : (ويحك يا نفس اطيعي) • ومنها على نغم بياتي ديوان أيضـاً مطلعها : (طه يا مالـكي رفقاً يا مدركي) • ومنهـا على نغم حجـاز كار مطلعها : (لي فؤاد حن لعلي) • واخرى مطلعها : (خل ملامك يا عاذلي) • وغير ذلك من عشرات الموشحات ذات الالحان الجميلة التي كـانت تنظم وتحفظ وتنشر في طول البلاد وعرضها •

وكانت قراءة الموشحات والاذكار النبوية تلتزم وجود فرقة كاملة من المنشدين الذين يساعدون في اداء النغم • فكان الملا عثمان يجد نفسه مضطراً الى تمرين عدد كبير من المنشدين ليجعلهم في بطانته ويعوض بهم النقص الذي كانت تتعرض له فرقته بين حين وآخر • فكان يتخرج على يديـه عدد من المنشدين المجيدين باستمرار • وبذلك فقد ساهم في تخريج كبـار المنشدين والقراء في العراق • ولم يمض وقت طويل الا وكان يجد تلاميذه في فن الانشاد والفنون الاخرى منتشرين في كثير من البلدان • وكان منهم من نال شهر واسعة بعدئذ في هذا الفن نذكر منهم الحافظ الملا مهدي[1]

---

(١) الحافظ الملا مهدي بن فزع بن عبدالله : ولد سنة ١٨٩٨م في مقاطعة شهربان • وقدم الى بغداد وهو صبي فتلقى القراءات والانغام واصول المقام العراقي عن الملا عثمان وغيره من مشاهير القراء في بغداد واصبح من القراء الممتازين في العـراق وانتدبته الاذاعة العـراقية لقراءة القرآن والموشحات • وقد سجل عدة اسطوانات • (المغنـون البغداديون والمقام العراقي للشيخ جلال الحنفي) •

وهو يعد من أشهر قراء القرآن والموالد النبوية في العراق وانتهت اليه رئاسة الاذكار النبوية في بغداد فترة من الزمن ٠ وقد اخذ اصول المولد النبوي عن الملا عثمان ٠

ومنهم ايضا الشيخ الحاج محمد الملاح[١] من قراء الموصل الممتازين واشتهر بقراءة القرآن والاذكار النبوية والموالد ٠

ومن الذين قرأوا عليه في الموصل الحاج محمد بن سرحان[٢] وهو قاريء موصلي مشهور وعالم من علمائها المعروفين ٠

وفي بغداد قرأ عليه كل من الملا عبدالفتاح بن معروف (ولد في الكرخ سنة ١٣٠٩هـ – ١٨٩١م) وهو من قراء القرآن الكريم وحفظته المجودين ٠ والملا مبارك (ولد سنة ١٢٨٠هـ وتوفي سنة ١٣٣٠هـ) وهو من قراء المولد النبوى في بغداد ٠ وكذلك الحاج احمد بن الملا كاظم بن دبيس (ولد في بغداد عام ١٢٧٢هـ وتوفي عام ١٣٣٥هـ) وقد اخذ القراءة عنه ابنه الملا طه الشيخلي ٠ وكذلك احمد بن شعبان (ولد في بغداد عام ١٣٠٠هـ – ١٨٨٢م) وهو من قراء الاذكار القادرية والمصرية ٠ وحسين النمنم بن علي (ولد في بغداد سنة ١٢٩٨ – ١٨٨٠م) وهو بالاصل من البانيا وهو من شغالة المولد مع جماعة الملا عثمان ٠ ومنهم ايضا السيد

---

(١) الحاج محمد بن الحاج حسين الملاح : نشأ في عائلة محافظة في محلة الامام عون الدين بالموصل ٠ وكان اعمى واشتهر بالتصوف والورع وبقراءة الاذكار والموالد ٠ وكان يحفظ سبعين من المقامات وشعبها حتى ان الملا عثمان وصفه بانه أقدر من يضبط المقام ٠ وصار اماماً في مسجد محمود البكري في الموصل حتى وفاته ٠ وقد توفي في ٢٥ جمادى الاولى ١٣٦٨هـ المصادف ٢٥ آذار ١٩٤٩م ٠

(٢) الحاج محمد بن سرحان : أحد قراء الموصل المشهورين وكان اماماً وقارئاً لمحفل جامع الرابعية في الموصل ٠ وقد رافق الملا عثمان عند ذهابه الى الحج عام ١٩٠٩م ٠ وكانت وفاته في ١٠ ذي الحجة ١٣٦٨هـ الموافق ٣ تشرين الاول ١٩٤٩م ٠

محمود الهاشمي[١] ٠

ومن الذين قرأوا على الملا عثمان الموصلي ايضا السيد محمد وحيد الدين[٢] العالم الفاضل والمدرس في كثير من المدارس الدينية ٠ وكذلك الحاج عبدالقادر بن عبدالرزاق[٣] خطيب جامع الامام الاعظم ومن كبار العلماء في العراق ٠

ومن تلاميذه ايضا الحاج محيي‌الدين مكي (وكان اماما لمسجد الشيخ صدرالدين وتوفي سنة ١٣٦٢هـ) ٠ والملا الكور رشيد ومحمود بن الطحانة ورشيد ابو ندر وشهاب بن شعبان[٤] وغيرهم كثيرون ممن لم تصلنا اخبارهم ٠

ومن يتطرق الى موضوع انشاد الموشحات الدينية والمدائح النبوية يجد نفسه منقادا الى ذكر فن النغم والموسيقى باحثا فيه من قريب او بعيد ، للصلة التى يجدها بين التلاوة كتعبير عن المعاني ، وبين الصوت الذي يقوم بالاداء من الناحية الفنية ٠ وهنا نجد سؤلا يفرض نفسه وهو : ما موقف الدين من الانغام والموسيقى وهل يجيز سماعهما ؟ وما مدى التحريم فيهما

---

(١) المغنون البغداديون والمقام العراقي ـ الحنفي ٠

(٢) السيد محمد وحيد الدين بن الشيخ أحمد القادري : قدم العراق من الهند صغيرا عام ١٩١٠م ودرس العلوم الدينية في بغداد على كثير من علمائها ٠ ودرس التجويد على الملا عثمان واكمل علومه في كلية الامام الاعظم ثم عين مدرساً فيها ٠ وسافر الى الهند فعين مدرساً في مدارسها الدينية ومفتشاً عليها وبعدها عاد الى العراق وعين اماماً وخطيباً في جامع سلمان باك سنة ١٩٤٧ (جامع الامام الاعظم للشيخ هاشم الاعظمي) ٠

(٣) الحاج عبدالقادر بن عبدالرزاق بن صفر اغا : ولد في بغداد عام ١٨٩٥م وتخرج في دار المعلمين ثم درس في الموصل على بعض علمائها ٠ واكمل دراسته في بغداد على الشيخ عبدالوهاب النائب وغيره من العلماء ٠ ثم اختص بعلم القراءات ٠ وعين خطيباً في جامع الامام الاعظم عام ١٩٢٩ ومدرساً للتجويد فيه ثم اماماً في الجامع المذكور ٠ (المغنون البغداديون والمقام العراقي للحنفي ٠ وتاريخ جامع الامام الاعظم للاعظمي) ٠

(٤) بغداد القديمة ـ عبدالكريم العلاف ٠

ان كان هناك تحريم ؟

ورغم انه لم يرد في القرآن نص صريح بالتحريم أو عدمه ، الا ان خلافا مستمرا بين الفقهاء ورجال الدين لا يزال قائما حول الموضوع فمنهم من حرم ممارسة الموسيقى او سماعها قطعا . ومنهم من أبدى تساهلا في ذلك . ولكل من الفريقين حجته واسانيده من الشواهد التاريخية حتى ليظن ان الامر يحمل على وجهيه . ووجد انصار الموسيقى وهواتها من حكام المسلمين وفنانيهم في العهد الاموي والعباسي ضالتهم في الاحاديث والوقائع التي حدثت في زمن الرسول (ص) او رويت عنه والتي يتلمس المرء فيها تساهلا في سماع الموسيقى والغناء بل اجازة فيهما فمن ذلك ان الرسول (ص) مر بجارية وهي تغني :

هل عليّ ويحكم — ان لهوت من حرج ؟

فاجابها : لا حرج ان شاء الله[1] .

ونقل مؤلف تاريخ الموسيقى العربية خبرين عن كتاب احياء علوم الدين للغزالي جاء فيهما ان ابا بكر الصديق (رض) دخل على عائشة (رض) وعندها جاريتان تضربان بالدف (وفي الخبر الآخر تغنيان) وكان الرسول (ص) حاضرا . فانتهرهما ابو بكر (رض) وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فاقبل عليه الرسول وقال : دعهما (وفي الحديث الآخر : دعهما فانها ايام عيد)[2] .

وجاء في المصدر السابق نقلا عن كشف المحجوب ان عائشة (رض) قالت : (كانت جارية تغني عندي ، فاستأذن عمر ، فلما سمعته الجارية

---

(١) الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان للعزاوي . وتاريخ الموسيقى العربية لفارمر .

(٢) تاريخ الموسيقى العربية . هـ.ج.فارمر .

هربت . فدخل والنبي يبتسم ، فقال عمر اضحك الله سنك يا رسول الله . كأنه يسأله عن سبب ضحكه . فقال : كانت هنا جارية تغني ، فلما سمعت خطواتك هربت . فقال عمر : لن ارحل حتى اسمع ما سمع رسول الله . فاستدعى الرسول الجارية ، فاخذت تغني وهو يسمعها) .

وجاء في المصدر نفسه (تاريخ الموسيقى العربية) نقلا عن العقد الفريد ان عائشة (رض) اخذت لاحد الانصار عروسه . فلما عادت ، قال لها الرسول (ص) : اهديتم الفتاة الى بعلها ؟ فاجابت عائشة : نعم . فقال : فبعثتم معها من يغني ؟ فقالت : لا . فقال النبي : او ما علمت ان الانصار قوم يعجبهم الغزل ؟

وجاء في هذا المصدر ايضا نقلا عن الامام الغزالي ان الرسول (ص) دخل بيت الرُّبيع بنت معوذ ، وعندها جوار يغنين ، فغنت احداهن عندما دخل النبي : (وفينا نبي يعلم ما في غد) فقال النبي : دعي هذا ، وقولي ما كنت تقولين (تغنين)[1] .

ومن ذلك ايضا ما يروى من ان النبي (ص) سمح بان يحتفل بالموسيقى عند زواج ابنته فاطمة (رض) من علي بن ابي طالب (رض) . فكان عمرو بن أمية الضمري وهو صحابي يعزف على الدائرة في ذلك الزواج[2] .

وكان ترتيل القرآن الكريم واجادة الأذان من الامور التي يقرها الدين وكان الرسول يشجع بلال وهو اول مؤذن في الاسلام في اداء الأذان بصوت حسن حتى صرنا نجد في الوقت الحاضر ان جمال الصوت ومعرفة المقامات الصوتية شرطان في اجادة ترتيل القرآن الكريم واداء الاذان والاناشيد النبوية . فكانت الصلة بين التلاوة ـ كمعانٍ ومفاهيم تبلغ الى الناس ـ وبين التلاوة كفن ونغم وثيقة لا يمكن الفصل بينهما .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ الموسيقى العربية ـ نقلا عن اولياشلبي .

ثم ازدادت الصلة على الصعيد الديني عند ظهور التصوف ذلك المبدأ الذي دان به مؤخرا بعض المتعبدين المسلمين وكانت له سوق رائجة في فترة ما ٠

والتصوف سواء اكان اشتقاقه من صفاء النفس او من الصف (واحد الصفوف) بمعنى أن الصوفي في الصف الاول لاتصاله بالله ، او انه كان منسوبا الى (الصفّة) التي بناها الرسول (ص) خارج المسجد في المدينة ليأوي اليها فقراء المسلمين او منسوبا الى الصوف الذي كان يلبسه الزاهدون من الناس ، او مأخوذ من الكلمة اليونانية (سوفوس) التي تدل على العقل والتفكير[1] ٠ سواء اذا كانت الكلمة مشتقة من احد المعاني المذكورة او غيره فان التصوف كان مرتعا خصبا ترعى فيه الافكار المختلفة بحرية تامة حتى لو كانت بعيدة عن المفهوم الظاهر للدين ٠

وان الاتجاه الديني الذي سلكه الملا عثمان منذ صغره ، والظروف التي عاش خلالها مع البيئة التي كانت تحيط به في ايام حكم العثمانيين الاخيرة دفعه كل ذلك في طريق التصوف فانتسب في شبابه الى الطريقة القادرية في الموصل ثم انتسب اثناء وجوده في استانبول الى الطريقة الرفاعية وكان يبشر بها ، ثم انتسب عند وجوده في مصر الى الطريقة المولوية التي هي اكثر علاقة بالموسيقى من الطرق الاخرى ٠ فقد ابيح فيها استعمال آلات الموسيقى على اختلافها ٠ وكذلك تحريك الجسم واهتزازه ، بحركات دائرية كالرقص تماما تتلى على ايقاعه طقوس الذكر والعبادة ٠ ولعل توغل الملا عثمان في فنون الموسيقى وحبه لها وتعلقه بها ، وسعة معرفته باسرارها كان له اثر واضح في انخراطه في سلك هذه الطريقة الشيء الذي ينسجم مع رغبته واتجاهه ٠

وان القيام بطقوس العبادة على انغام الموسيقى شيء قديم عرفه الاسان

---

(١) في التصوف الاسلامي وتاريخه لنيكلسون ٠

منذ العصر الوثني ثم استمر على زمن الاسرائيليين حتى ان الذي يتتبع كتاب التوراة او العهد القديم[1] يجد في جـزء مزامير داود ادعية وابتهالات وتوسلات متوجهة الى الله وقد اشير الى بعضها انها قيلت على ذوات الاوتار (العود والطنبور ونحوه) او على ذوات النفخ (كالمزمار والبوق) او على الصنج . ويذكر عن بعضها انها على نغم القرار وعن بعضها الآخر ان النبي داود قد (غناها) شكرا للرب . وبين هذه الادعية والصلوات دعاء فيه توصية للمؤمنين جاء فيه : (اهتفوا ايها الصديقون بالرب . بالمستقيمين[2] يليق التسبيح . احمدوا الرب بالعود . بربابة ذات عشرة اوتار رنموا له . غنوا له اغنية جديدة . احسنوا العزف بهتاف . لان كلمة الرب مستقيمة . وكل صنعه بالامانة ... الخ) . ومثل ذلك ما جاء في هذا الجزء من التوراة ايضا وهو (سبحوا الله في قدسه سبحوه في فلك قوّته . سبحوه على قواته . سبحوه حسب كثرة عظمته . سبحوه بصوت الصور « اي البوق » . سبحوه برباب وعود . سبحوه بدف ورقص . سبحوه باوتار ومزمار سبحوه بصنوج التصويت . سبحوه بصنوج الهتاف) .

وفي اديان كثيرة في الوقت الحاضر لا تـزال الموسيقى تستعمل في الصلاة والطقوس الدينية . اما في الدين الاسلامي فلا يزال استعمال الدف مباحا في الاذكار الدينية والموالد حتى تلك التي قد تقام في المساجد احيانا . وكان ذلك التساهل تجاه المتصوفة عاملا مشجعا عى نشوء الطريقة المولوية فتطور اسلوب الذكر فيها من استعمال الدف الى استعمال العود والكمنجة والطبلة والمزمار وغير ذلك حتى تكونت لديهم فرق موسيقية كاملة .

ما هي المولوية وكيف نشأت :ـ

نشأت المولوية كطريقة صوفية على النهج الذي وضعه مولانا جلال

---

(١) العهد القديم ـ مزامير ٧ ، ٥٥ ، ٩٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) أي المزمار المزوج (أو المطبق) .

الدين الرومي (ومن كلمة ـ مولانا ـ جاء اسم المولوية) وهو من اعظم الشعراء الصوفيين[1] وقد تلقى العلم في باديء الامر على والده وعلى الشيخ برهان الدين الترمذي الذي علمه مباديء التصوف • ولما توفي والده خلفه في منصبه كاستاذ وانكب على الدراسة والتعمق في علم التصوف بدراسته على شمس تبريز • وكان هذا قد جاء الى قونية حيث يقيم جلال الدين • وقد تقرب منه كثيرا مما أثار حسد تلاميذ جلال الدين من شمس تبريز واجبروه في النهاية على الفرار • وفي هذا الوقت انشأ جلال الدين طريقة الذكر على نغمات الناي ونظم شعرا لغرض الانشاد فيه • وكان هذا بداية طريقة الدراويش المولوية والذين يدعون باخوان المحبة اي محبة الله • وقيل ان حركات الذكر التي ترافق ايقاع الموسيقى عندهم ترمز الى دوران الكواكب السيارة حول شمسها المركزية ، وانجذاب المخلوقات الى خالقها • ثم انتشرت هذه الطريقة في البلاد الاسلامية • وقد شجع انتشارها التدهور السياسي والاجتماعي الذي اعقب سقوط الدولة العباسية بيد المغول • وانتهى الامر الى الشكل الذي وصلت اليه المولوية في زمن العثمانيين حيث اصبح لها تكايا ومراكز في اكثر البلاد الاسلامية • وكانت آنذاك على ثلاث شعب :ـ الچلبية ٢ ـ القلندرية ٣ ـ الددوية • وتوجد

---

(١) جلال الدين الرومي : مؤسس الطريقة المولوية الصوفية • وقد ولد في بلخ من بلاد فارس سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) حيث كان والده بهاءالدين استاذاً في العلوم الدينية في بلاط الحاكم خوارزمشاه • ويقال ان هذا الحاكم كان يكيد له فترك بهاءالدين مدينة بلخ مصطحباً اسرته • ويروى انه بينما كانوا مارّين بنيسابور التقوا بالمتصوف فريدالدين العطار الذي دعا للصبي بالبركة واهداه نسخة من كتابه (اسرارنامه) • واستمرت الاسرة في طريقها الى مكة • وبعد اداء فريضة الحج استقر بها المقام في مدينة قونية في الأناضول التي كانت تسمى بلاد الروم ومن هنا جاءت تسمية جلال الدين بالرومي • وقد توفي في قونية سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) ودفن في التكية التي أسسها هناك والتي أصبحت فيما بعد مركزاً لتجمع المولويين حيث يحتفلون سنوياً في موسم معيّن على انغام الموسيقى •

جلسة ذكر مولوية على انغام الناي والكمنجة والطبلة



في ايران الطريقة الجلالية وتنسب الى جلال‌الدين نفسه .

اما في البلاد العربية فانها اكثر ما توجد في سوريا ومصر . ولها في القاهرة التكية المشهورة في حي السيوفية ، وتعقد للمولويين فيها جلسة ذكر اسبوعية يحضرها كثير من المولعين بالموسيقى والغناء ليقفوا على ما ابتدعه هؤلاء المتصوفون من النغم والالحان مع توقيعه بحركاتهم .

اما في العراق فقد كانت المولوية خاملة الذكر وغير معروفة لدى الكثير من الناس . وقد وجدت على نطاق ضيق في بغداد عندما شجع العثمانيون هذه الطريقة وارادوا نشرها وتوسيعها بواسطة الموظفين الاتراك القادمين من استانبول ، والذين يعينون للعمل في العراق . فكان كثير منهم من ينتسب الى الطريقة المولوية حيث انشئت لهم تكية خاصة بهم في الجامع الذي سمي بجامع الآصفية[1] والذي يدعى الى عهد قريب بالمولى خانة . الا ان هذه الطريقة لم يكتب لها البقاء والانتشار ، وذلك لانعزال هؤلاء الموظفين عن عامة الناس وعدم وجود التقارب بينهم[2] .

وعندما كان عثمان الموصلي في مصر اتصل باقطاب المولوية فيها ، وكان يحضر جلسات الذكر معهم بدافع حبه للموسيقى . وبعدئذ تم انتسابه الى هذه الطريقة ، ثم انتسب اليها ابنه الحاج احمد فكلفه ابوه الملا عثمان وهو لا يزال في بلاد الشام بتعمير مسجد شمس‌الدين[3] في الموصل ليكون

---

(١) جامع الاصفية : نسبة الى (آصف الزمان) داوود باشا والي بغداد الذي قام بتعمير هذا الجامع أيام ولايته ١٢٣٢ - ١٢٤١هـ (١٨١٧ - ١٨٢٦م) وبنى فيه مصلى واسعاً عليه قبتان . وقيل أن الذي جعله تكية للمولوية محمد چلبي كاتب الديوان في بغداد في أيام الوالي (جغاله زاده سنان) .

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ .

(٣) مسجد شمس‌الدين : نسبة الى شمس‌الدين الحسن بن عدي بن صخر الاموي الملقب بتاج العارفين ، وكان من أجلّ أهل العلم رأياً ودهاءً وله فضل وأدب وشعر وتصانيف في التصوف وكان التابعون والمريدون

تكية مولوية ومركزا لتجديد هذه الطريقة ونشرها في العراق بعد ارسال منحة مالية يستعين بها للقيام بالبناء وفعلا فقد انتهى من تعمير هذه التكية • وارسل له ابوه شعرا ليكتبه على بابها مؤرخا به تعميرها ، ومشيرا الى ان الذي قام ببنائها هو ابنه الحاج احمد وذلك بقوله : (ولدي بفضل الله عمرّ تكية) في الشعر المذكور • ثم افتتح الحاج احمد هذه التكية الجديدة بأمر من والده واقام فيها كشيخ لها وذلك عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) • وعند رجوع ابيه الشيخ عثمان سعى في نشر الطريقة على نطاق واسع واجتهد في تشكيل فرقة موسيقية تكون نواة لجماعة المولوية في الموصل • الا ان فكرة المولوية زالت مع مرور الزمن لا سيما بعد نشوب الحرب العالمية الاولى حيث قضي عليها اصلا واغلقت تكاياها وزواياها واصبحت طي النسيان في الوقت الحاضر •

يبالغون في شأنه حتى خافه بدرالدين لؤلؤ ملك الموصل فقبض عليه وحبسه ثم خنقه بوتر في قلعة الموصل • وكان ذلك سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) كما ورد في كتاب خطط الموصل • وجاء في كتاب منهل الاولياء ومشرب الاصفياء للعمري وكتاب مجموع الكتابات المحررة في ابنية الموصل للسيوفي ما ينفي وجود قبر للشيخ المذكور في هذا المسجد مع التشكيك بنسبة هذا المسجد لـه •

رائد الموسيقى الشرقية ومعلمها الاول

نبوغ الملا عثمان بالموسيقى وسفره الى مصر وتدريسه الموسيقى لكبار فنانيها • علاقته بالموسيقار المصري عبده الحمولي • التقاء نابغة الموسيقى سيد درويش بالملا عثمان في الشام ودراسته عليه فنون الموسيقى والموشحات • تأثير الملا عثمان على الموسيقى التركية وايجاده اسلوب خاص من الموسيقى فيها • اشهر تلاميذه بالموسيقى في مصر والعراق وبلاد الشرق الاخرى • براعته بالعزف على آلات الطرب المختلفة • ارهافه الفني وتمييزه الاصوات الموسيقية • أشهر الالحان التي قام بوضعها •

كان المرحوم الملا عثمان من اقطاب الموسيقى في الشرق خلال الربع الاول من هذا القرن • وكان علما من اعلامها ورائدا من روادها الاوائل وله فضل كبير في نشرها وتطورها وادخال التجديد عليها • وكان عجيبا

ان يكون كذلك وهو الرجل الاعمى الذي انصرف الى قراءة القرآن وشؤون التصوف والادب • ولكنها المواهب التى تجلت عنده والتي تقارب حدود الشك حتى ليقف المرء دونها حائرا ، وحتى ليظن ان هذا الانسان قد جمع الله العالم فيه كأنه قد خلقه ليكون تذكرة لمن مضى وحجة على من جحد • هذه المواهب الغزيرة التى تعهدها الملا عثمان بالعناية ومن قبل تعهدها فيه مربيه العمري منذ ان لاحظ ميله الى الموسيقى فهيأ له معلما يعلمه اصولها منذ نعومة اظفاره ثم شب وهو يرعى ما استوعبه ليدرك ما لم يصل اليه من فنونها ومسالكها وشعبها • واخذ يقصد معلميها آنذاك ويطرق عليهم الابواب ليلا ونهارا للاستماع اليهم حتى وصل الى ما لم يصل اليه غيره من ضروب هذا الفن يشجعه على ذلك الصلة التي يجدها الناس بصورة عامة بين الموسيقى وبـين التواشيح الدينية والمـوالد التي يجيـدها الملا عثمان ويمارسها في المحافل • حتى انه درس المقام العراقي وهو لما يبلغ السابعة عشر من عمره •

ومن هؤلاء الـذين لازمهـم الملا عثمان ودرس عليهم فنـون الغناء والموسيقى المغني رحمة الله شلتاغ[١] المشهور بغناء المقامات • وكذلك الحاج عبدالله الكركوكلي وغيرهما من اساتذة الفن الذين لم يكن في ذلك العصر من يهتم بالكتابة عنهم او تعريفهم للاجيال الاخرى نظرا للجهل الذي يخيم على هذه البلاد والتأخر الذي تتخبط فيه •

---

(١) رحمه الله شلتاغ بن سلطان اغا بن خليل : من اساتذة الطرب في العراق ولد في الشام في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وله في المقام العراقي تجديدات وتصرفات نغمية منها ادخاله نغمة السيرنك في مقـام الراست • وهو أول من قرأ مقام الابراهيمي من الدوكاه وكان يقرأ سابقاً من الحسيني • وشلتاغ هو الذي ابتكر مقام التفليس نسبة الى المدينة التي سكنها محبوب له آنذاك وعنه أخذ المغنون العراقيون هذا المقام • وقد توفي في بغداد سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) ودفن في مقبرة الشيخ عمر • وتعددت الاقوال في موته • وعلى الارجح انه جرح ثم خيط جرحه وعند تماثله للشفاء غنى فانفتق الجرح فمات • (المغنون البغداديون والمقام العراقي) •

وكان الملا عثمان قد جادت عليه السماء بصوت بديع دافيء من طبقة غليظة حلوة ، يشبه من الاصوات التي نعرفها صوت المرحومين محمد رفعة والشيخ محمود صبح بل هو اضخم من صوتهما واجمل • وقد اعجب به كل من سمعه حتى ان الاديب المؤرخ محمد بهجة الاثري الذي عاصره يصفه بانه (كان صوتا معبديا ينعش الارواح من كبوات الاتراح ، وجرسا غريضيا يخرس الاطيار في اعالي الاشجار فلم يزل يعاني الصنعة حتى جاءت منه آية نسخت آية ابراهيم الموصلي فحلق طائر صيته في سماء العراق وأصبح حديث المحافل والنوادي في الاصقاع والآفاق)[1] •

وتلازم صوته الجميل مع براعة الموسيقى فكانت الحصيلة تلك الموهبة التي لم يشأ الملا عثمان ان يدعها خاملة فشد الرحال الى مصر بعد أن وجد ان العراق متخلف عنها في فنون الغناء والموسيقى • وكانت مصر آنذاك كعبة الادباء والمثقفين في البلاد العربية وتنافس عاصمة الخلافة العثمانية بنهضتها وفنونها لا سيما وانها أول بلد عربي تدخله الحضارة الاوربية • وكان فيها عدد من كبار الموسيقيين والمغنين والمنشدين من الذين حازوا شهرة عظيمة وشأوا بعيدا في فنون الموسيقى والانغام والغناء ، والذين كانت المنافسة بينهم على اشدها فلا يدعون مكانا بينهم لشخص مغمور وعلى الأخص اذا كان غريبا عن ديارهم •

وعندما حط الشيخ عثمان رحاله في القاهرة واتصل به الناس واطلعوا على ما بلغه من فنون الموسيقى والنغم التفوا حوله واعجبوا به وسرعان ما استطاع ان يجد مكانته اللائقة بينهم وينال احترامهم وتقديرهم واعجابهم حتى ان مؤلفي تاريخ الموسيقى المصرية ذكروه في مقدمة الاساتذة الذين خدموا فن الموسيقى والموشحات في مصر ابان النهضة الموسيقية فيها والذين

---

(١) مجلة لغة العرب — تشرين الثاني ١٩٢٦ •

درس عليهم اكثر الموسيقيين المصريين في الجيل الماضي وكانوا مدينين بالفضل لهم[١] •

وكان في قمة الشهرة والمجد من الموسيقيين المصريين الموسيقار عبده الحمولي الذي تربع على عرش الطرب فيها وبلغت شهرته اقاصي البلاد العربية حتى ان الملا عثمان عندما وصل مصر اعرب عن رغبته في التعرف على هذا الموسيقار والالتقاء معه • وكان الالتقاء بينهما حافلا حيث اعجب كل منهما بصاحبه وكانت بينهما صلات توثقت على ارهاف فني ، واوثق الصلة ما اقترن باحاسيس الفنون حتى انهما كانا يجتمعان الليالي الطويلة يسمع كل منهما صاحبه ضروب الفن من الموسيقى والغناء ويدركهما الصباح وهما في مجلسهما هذا ، كما حدث ذات مرة ان دعيا معا الى حفل ساهر في دار احد الوجهاء بمناسبة فرح اقامه ذلك الوجيه • وتناوبا تلك الليلة الغناء على انغام الموسيقى واستبد بالناس الطرب ونسوا انفسهم جميعا وما يزالون كذلك حتى مضى الليل واشرق الصباح وعندئذ لم يدعهما صاحب الدار من الخروج الا بعد ان تناولا عنده طعام الافطار •

واجتمع مرة الملا عثمان مع عبده الحمولي في دار الوجيه موسى بك عصمة نجل المرحوم جعفر باشا • وكان وقتئذ أحد عازفي الناي المشهورين حاضرا في ذلك الاجتماع • وقد علق مؤلف كتاب الموسيقى الشرقية[٢] الذي نقلنا عنه هذا الخبر مستشهدا على براعة عازف الناي هذا بان عثمان الموصلي الفنان المشهور حضر خصيصا من حلوان الى القاهرة لسماعه • وهذا يدل على المكانة التي يتمتع بها الملا عثمان عند الموسيقيين والمؤلفين المصريين وعلى اهمية حضوره لسماع هذا العازف • كما يعطينا ذلك فكرة عن الفترة

---

(١) راجع الموسيقى الشرقي للخلعي وغيره •

(٢) الموسيقى الشرقية والغناء العربي ـ تأليف قسطندي رزق •

التي قضاها الملا عثمان في مصر وتنقله بين اطرافها وعن علائقه مع الناس هناك •

ومضت الايام الجميلة التي عاشها معا هذان الفنانان ، وانطوت صفحات الانس ، وانفضت مجالس الطرب التي كانت عامرة بوجودهما • ورجع الملا عثمان الى العراق • وانتقل عبده الحمولي الى جوار ربه تاركا بوفاته فراغا فنيا في مصر رغم وجود الكثير من الفنانين والموسيقيين فيها آنذاك •

وعبده الحمولي علم من أعلام الموسيقى والغناء في مصر(١) وله فضل كبير في التوفيق بين الموسيقى التركية والعربية حيث عمل على ترجمة الاغاني التركية الى العربية مع التصرف بها حسبما يتفق مع الذوق العربي • وقام بتهذيب التواشيح العربية القديمة بما يلائم عصر النهضة الموسيقية في ذلك الوقت •

ويذكر ادهم الجندي في كتاب (اعلام الادب والفن) المطبوع في دمشق بان الفنان عبده الحمولي اخذ عن عثمان الموصلي الموشحات ومزجها بالادوار المصرية • ويزيد على ذلك بان نغمات الحجاز كار والنهوند وفرعهما كانت مجهولة في مصر وقد ادخلها اليها الملا عثمان •

وظل الملا عثمان فترة طويلة بعد رجوعه الى العراق وهو يذكر صاحبه عبده الحمولي والايام الجميلة التي قضاها بصحبته في مصر • واذا ذكره زفر وبكى عليه •

وفي مصر كثيرا ما كان الملا عثمان يجد نفسه امام طلاب الموسيقى

---

(١) عبده الحمولي : الموسيقار والمغني المشهور • ولد سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م) في طنطا • ودعي بالحمولي نسبة الى حمول ، وهي بلدة من أعمال مديرية المنوفية في مصر • وسافر الى استانبول حيث اتصل بالسلطان عبدالحميد فاكرمه واوعز اليه ان يقوم بتعليم ضباط الموسيقى في الجيش العثماني عام ١٨٩٦م • وكانت وفاته في حلوان عام ١٩٠١م • (الموسيقى الشرقية والغناء العربي) •

والغناء الذين يقصدونه للدراسة عليه • ومنهم موسيقيون مشهورون ساهموا بعدئذ في بناء النهضة الموسيقية في مصر واشتغلوا بالتلحين • ومـن هؤلاء الموسيقار المصري كامل الخلعي[1] حيث درس عليه وأخذ عنه الموشحات التي على الاوزان التركية والشامية • وقد الف الموسيقار كامل الخلعي كتابا عن الموسيقى الشرقية وفيـه اشهر الالحـان التي كانت معـروفة في ذلك الوقت • وقد اشار فيه الى دراسته على الملا عثمان الموصلي في عدة مواضع من الكتاب ، مما يدل على اعترافه بفضله وبطول باعه في علوم الموسيقى •

ومن الذين درسوا فن الموسيقى والموشحات على الملا عثمان الموصلي في مصر الشيخ علي محمود • وهو من اشهر قراء الموشحات والاغاني في مصر[2] ، وقد أخذ عنه أصول فن الموشحات التركية والشامية ثم أصبح للشيخ علي محمود فرقة خاصة تقوم باحياء الحفلات الليلية في الافـراح والموالد • وفي اثناء ذلك التقى الشيخ على محمود بشاب يميل الى الموسيقى والالحان فألحقه ببطانته وشجعه على تلحين الاغاني وهو الشيخ زكريا احمد الذي اصبح في ما بعد من اشهر الملحنين في مصر وبلغ في ذلك منزلة عالية حتى دعي بشيخ الملحنين •

وقد تعرف زكريا احمد على السيدة ام كلثوم عام **١٩١٩** وظل ملازما لها فترة طويلة حيث قام بتلحين اغانيها الرائعة حتى ان المرء عندما يسمع

---

(١) محمد كامل الخلعي : موسيقار ومؤلف مصري من عائلة الخلعي في دمنهور • ولد في الاسكندرية ، ونشأ في القاهرة ودرس الموسيقى والغناء حتى برع فيهما • ومن اشهر اسـاتذته في الموسيقى الملا عثمـان الموصلي والشيخ أحمد أبو خليل القباني • وقد لحن ٣٥ رواية مسـرحية وجمع تلاحينها في كتاب مطبوع وقد توفي عـام ١٩٣٨م • ومن مؤلفـاته كتاب الموسيقى (الشرقي) وكتاب (نيل الاماني في ضروب الاغاني) • (الاعلام للزركلي والموسيقى الشرقي للخلعي) •

(٢) (زكريا أحمد) – تأليف (صبري أبو المجد) •

هذه الاغاني الجميلة كاغنية (أنا في انتظارك) و (حبيبي يسعد اوقاته) و (الاولى في الغرام) و (اهل الهوى) و (قولي لطيفك ينثني عن مضجعي) وغيرها من الاغاني التي قام بتلحينها زكريا احمد ذات اللحن العربي الصميم الذي يتسم بالهدوء والاسترسال الشبيه بالحان الموشحات ليتخيل بانه صار يحلق في سماءٍ من نشوة الماضي وكأنه يلمح اصابع الملا عثمان من وراء هذه الالحان ومن خلال تلميذه الشيخ علي محمود وعضو فرقته الشيخ زكريا احمد ، اذ انعكس ذلك على صفحة صافية من مواهب ام كلثوم التي خلقت من الالحان ملحمة رائعة تعتز بها الاجيال .

وفي مطلع عام ١٩٠٩م كان الملا عثمان في بلاد الشام حيث قدمت من مصر فرقة غنائية متكونة من بعض الفنانين برئاسة امين عطا الله واخيه سليم عطا الله لتقديم بعض الالحان الموسيقية والاغاني الخفيفة في البلاد العربية الشقيقة . وكان بين أعضاء الفرقة فنان موهوب هو الموسيقار سيد درويش[١] وكان امين عطا الله قد تعرف عليه في القاهرة ولمس موهبته الفنية فقرر الحاقه بهذه الفرقة .

وقد مكثت الفرقة في بلاد الشام عشرة اشهر لم تكن خلالها ناجحة في مهمتها الفنية هذه . ورغم ان سيد درويش ايضا لم يحقق فيها ما يصبو اليه من الشهرة الواسعة الا ان الفائدة التي حصل عليها كانت باتصاله بالشيخ عثمان الموصلي وكان في اوقات فراغه يقصده في غرفته للدراسة عليه والاستماع الى الحانه كما اخذ عنه اصول الموشحات العربية والتركية .

---

(١) سيد درويش : الموسيقار المصري العبقري . ولد في الاسكندرية عام ١٨٩٢م وشغف منذ صباه بالموسيقى والغناء فالتحق بعدة فرق غنائية تعمل في المقاهي وحفلات الافراح والموالد . ثم اشتغل بالتلحين واستطاع ان يرفع مستوى الموسيقى في مصر ويساهم في بناء نهضة موسيقية فيها . وقد توفي في أيلول ١٩٢٣م (الموافق صفر ١٣٤٢هـ) . (سيدر درويش حياته وآثار عبقريته ـ الدكتور محمود احمد الحفني) .

ولم تلبث الفرقة الموسيقية ان عزمت على الرحيل بعد انتهاء هـذه المـدة فاضطر سيد درويش الى الانقطاع عن دروسه وترك استاذه الملا عثمـان مغادرا الشام مع الفرقة الى مصر .

وبعد ثلاث سنوات قررت الفرقة السفر ثانية الى بلاد الشام بعد ان هيأت لنفسها مواهب جديدة وصممت على انتزاع النجاح والشهرة . وكان سيد درويش بين اعضائها ايضا فلم تكد الفرقة تحط الرحال بعد وصولها الى بلاد الشام الا وذهب سيد درويش ليسأل عن استاذه القديم الملا عثمان الذي كان لا يزال هناك . وبعد مدة قصيرة كان سيد درويش يستأنف دروسه في الموسيقى على الشيخ الضرير ويتم عليه الالحان الشرقية واصول الموشحات ويستمع الى انغام جديدة ومقامات غنائيه ذات تشعبات وفروع واقام هناك سنتين بين عامي ١٩١٢ - ١٩١٤م استطاع فيها ان يأخذ الكثير من فنون الموسيقى وقد حفظ عنه كل ممتع رائع من الغناء والالحان مما جعله قادرا على التصرف بالنغم الشرقي وادخاله في الاغاني المبتكرة[١] .

ثم رجع سيد درويش الى مصر وقد رسم في ذهنه خطوطا عريضة للموسيقى والالحان تتصل بالماضي العريق مأخوذة من تراثنا الفني العربي وتتصل من طرف ثانٍ بنهضة موسيقية حتى تبلغ القمه . ومضى سيد درويش يرتفع بالموسيقى المصرية مطورا اياها حتى بلغ في ذلك شهرة واسعة ومكانة رفيعة . وقد انتشـرت الاغاني الجـديدة التي اقتبسها سيد درويش عن استاذه الموصلي الى جانب الالحان الاخرى التي وضعها وشاعت في مصر وتداولها الهواة في كل مكان . ورغم ان هذه الالحان قديمة ومضى عليها زمن طويل الا انها لا زالت تحافظ على روعتها ولا يزال بعض الفنانين في الوقت الحاضر يرونها جديرة بالاعجاب وتلائم النضوج الفني في هذا العصر

---

(١) المصدر السابق .

فجعلوا يأخذون بعضا منها لينفضوا عنه غبار الزمن ويقدموه للاذاعة بصوت جديد مثلما فعلوا باغنية (طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة) وهي من الحان الملا عثمان مما اخذه عنه سيد درويش ونشره في مصر • ولا تزال هذه الاغنية ينشدها المغنون العراقيون القدماء في بغداد بعد قراءتهم المقامات بكلمات من اللهجة البغدادية •

ومن شيوخ اهل الفن واقطابهم المجددين الذين اخذوا عن الملا عثمان فن النغم والالحان ولا سيما الموشحات الشيخ أحمد أبو خليل القباني[1] الذي كان له باع طويل في الموسيقى والتمثيل المسرحي في مصر وسوريا وله كثير من التلاميذ الـذين اشتغلوا في الموسيقى وفي الفـرق التمثيلية المسرحية التي قام بتأليفها •

وفي تركيا كان الملا عثمان يتمتع بشهرة واسعة في الموسيقى والالحان حتى ان الحكومة العثمانية عينته مدرسا للموسيقى في احدى مدارس العاصمة استانبول اعترافا له بعلو كعبه في هذا الفـن وكان له كثـير من المعجبين والتلاميذ من مشاهير الفنانين الاتراك وفي طليعتهم الموسيقار سامي بيك رئيس اكبر فرقة موسيقية تركية • وكذلك المغنية التركية الشهيرة (نصيب) وعنه أخذوا الموشحات والغـزل التركي • وافتتن الاتـراك به فدانت لعبقريته المواهب ، تلك العبقرية التي تطاولت على الفنانين اللامعين فظهروا كالاقزام امامه وانبروا يتسابقون لزيارته ويستقون من منهل فنونه ويشهدون بانه تحفة عجيبة منحها القدر للناس •

---

(١) الشيخ أحمد أبو خليل بن محمد اغا بن حسين آقبيق القباني الدمشقي • ولد عام ١٨٣٣م في دمشق واشتهر بالموسيقى والالحان وبالتمثيل المسرحي الذي يعد من اشهر رواده ومؤسسيه في البلاد العربية • وسـافر الى مصر مشاركاً في بناء نهضتها الفنية كما قام بتأليف عدة روايات مسرحية • وتوفي سنة ١٩٠٣م (اعلام الادب والفن) •

وكان الملا عثمان قد اوجد في تركيا اسلوبا من الموسيقى خاصا به وذلك بالمزج بين الموسيقى العربية والتركية وبادخاله المقامات العراقية بالغناء التركي فكان مثلا يقرأ مقام البياتي العشاق التركي على اسلوب مقام المنصوري الموصلي • فكان الاسلوب الذى اوجده يدعى في تركيا اسلوب الحافظ عثمان الموصلي (موصللو حافظ عثمان طرزنده)[1] الذي له عدد من المعجبين يلتذون بسماعه اذ يعتبر تجديدا في الموسيقى التركية • وقد اخذه عنه بعض تلاميذه فسجلوا مقطوعات منه على اسطوانات معروضة للبيع في الاسواق التركية وتذاع من محطات الاذاعة في انقرة واستانبول بين حين وآخر •

ويروي بعض الفضلاء الموصليين انهم سمعوا مرة من اذاعة انقرة اغنية ذكر عنها المذيع انها على اسلوب الحافظ عثمان الموصلي فارسلوا اسم الاغنية الى المحطة المذكورة طالبين منها اذاعتها فما كان جواب محطة الاذاعة عندما وصلتها الرسالة من العراق الا ان قطعت اذاعة مثل هذه الاغاني حتى لا تعترف ضمنا بفضل موسيقار عربي على الموسيقى التركية •

وفي استانبول كان الملا عثمان يمارس التلحين وكانت آلة الحاكي (الفونغراف) قد وصلت بلاد الشرق حديثا وهي من الطراز القديم ذي الاسطوانات الشمعية المجوفة (انبوبية وليست مسطحة) فكان يسجل صوته عليها ويرسلها هدايا الى اصدقائه في الموصل بواسطة التجار العراقيين الراجعين من استانبول • منها اسطوانة ارسلها الى صديق حميم له يقول فيها :

عرف الغرام بمهجتي فتمنعا ورآه قلبي لا يرق فودعا
يومي اقلب راحتيّ وليلتي ارعى النجوم وليته في ذا وعى

وقد لحنها لحنا جميلا من نغم الراست •

---

(١) التراث الموسيقي في الموصل •

وقد بقي من تلك الاسطوانات بحالة جيدة اربع فقط الاولى من مقام الراست ، والثانية من مقام المنصوري ، والثالثه من مقام الشهري ويغني فيها اغنية من نظمه وتلحينه ومطلعها (للعاشق في الهوى دلائل) ، والرابعة من مقام السيكاه ويقرأ فيها البيتين التاليين :

اقول لصحبٍ ضمت الكاس شملهم　　وداعي صبابات الهـــوى يتـــرنم
خذوا بنصيب من نعيـــم ولـذة　　فكل وان طـــال المـــدى يتصرم

ثم يعقبها بهذه الكلمات : (يا أهل الحدباء يا أغاتي يا عيوني هذا القوان اسمعوه بعد موتي وانا الملا عثمان والسلام عليكم)[1] ملحنا هذه الكلمات بلحن شجي حزين مملوء بالعاطفة تجاه بلدته الموصل تترك في نفس السامع اثرا وانفعالا عند سماعه لها (والحدباء هي مدينة الموصل ، والقوان هو اسطوانة الحاكي) •

وقد تم نقل هذه الاسطوانات على اشرطة المسجلات وعندي نسخة منها وهي رغم قدمهـا ورداءة آلات التســجيل التي سجلت بها في ذلك الوقت ، ورغم التلف الذي طرأ عليها من اهمالها في زوايا الدور وبين المخلفات القديمة المتروكة ، فانها لا تزال تحافظ على روعة الصوت وجمال اللحن وتكفي لصاحب الاختصاص في هذا الفن لتكوين فكرة عامة عـن رخامة صوت المرحوم الملا عثمان واسلوبه الخاص في الغناء • ويعود الفضل في المحافظة عليها من الضياع وتسجيلها على الاشرطة للسيد محمد صالح الخطاط بن الشيخ علي الموصلي •

وقد نقل الملا عثمان الى المقامات العراقية عن الموسيقى التركية مقـام الديوان في شكله السائد والمحفوظ الى الآن على حناجر هواة الموسيقى في الموصل • وقد سمع مرة في الموصل نغمة اعجبته من موسيقى الجيش

---

(١) مجلة التراث الشعبي ـ العدد ٨ نيسان ١٩٦٤ •

التركي تسمى (سيد هواسي) من مقام الراست ويقرب لحنها مما يسمى بالبشرف فنظم عليها التنزيلة المشهورة التي مطلعها (يا آل طه فيكم قد هام المضنى يرجوكم) والتي نالت اعجاب الناس آنذاك وطربوا لها وهي موسيقى رائعة كما انها صعبة العزف حسب قول الموسيقيين •

وفي العراق ساهم الملا عثمان في رفع شأن الموسيقى وهو اول من ادخل التجديد في اساليبها في العراق ونهض بها من كبوتها خلال عصور سحيقة من الخمول والتأخر والتخلف الحضاري بعد سقوط الدولة العباسية واندثار حضارتها العربية الاصيلة •

والمعروف عن الملا عثمان انه كان اقدر من يميز بين الانغام ويضبط المقام ولا يجاريه احد في التمييز بين الاصوات مهما كان الفرق بينها قليلا ولذلك فقد كان يجيد دوزنة العود والقانون بشكل عجيب • ومن نوادره على اجادته التمييز بين الانغام تلك القصة التي يرويها حفيده المرحـوم الحاج علي بن الشيخ احمد بن الملا عثمان فقد كان مرة يسير معه في الزقاق المعروف بعقد النصارى وهو غلام وقد أخذ بيده ليدله على الطريق ويوصله الى داره وكان الوقت ليلا • وبينما هو في طريقه سمع صوت عزف على العود ينبعث من احدى النوافذ من دار مطلة على الطريق فتوقف قليلا ثم التفت الى حفيده الصغير الذي امسك بيده وقال له (لقد قتلني هذا العازف) ثم تقدم الى باب الدار وطرقه وهو يقول بصوت مرتفع (يا عازف العود ان وتر الحسيني غير محكم شده قليلا) •

ومن ذلك انه كان يرهف السمع الى ايقاع الطبلة عندما يضرب أحد عليها فاذا اخطأ أحد الضاربين أو شذ عن الايقاع في احدى ضربات (دم أو تك)[1] اثبته واشار بيده الى الخطأ الواقع • وكان فوق ذلك يجيد العزف

---

(١) ضربات (دم وتك) هي الضربات التي يتكون منها ايقاع الطبلة (أو الدف) فالاولى هي الغليظة وتضرب على وسط الطبلة والثانية دقيقة أو خفيفة تضرب على حافتها •

على القانون بصورة رائعة رغم ما في ذلك من صعوبة لمن فقد بصره وذلك لكثرة عدد أوتار القانون وتقاربها من بعضها بالصوت والحركة • وكان لا يستعمل في قانونه العربات التي تستعمل عادة لاخراج انصاف الارباع بل كان يتلاعب بأنامله واطراف اظافره فيخرج النغمات سليمة شجية مما لم يسبق لغيره أن اتى بمثله • كما انه يعزف على العود ببراعة وتعلم العزف على الناي فأتى بغرائب الاعجاز • ثم انه يضرب على الطبلة بسرعة هائلة تدعو الى العجب • كما ويجيد استعمال النوتة الموسيقية الغربية اجادة تامة ويدرسها لتلاميذه في تركيا والبلاد العربية • وكان يحفظ حروفها بالسماع ويخرجها عند العزف بانصافها وأرباعها في الوقت الذي قل من يعلم ما هي النوتة الموسيقية فضلا عن اجادة تطبيقها عند العزف •

وللملا عثمان اسلوبه الخاص بغناء الادوار المصرية فمثلا كان الدور المشهور (سلمت روحك يا فؤادي للغرام من غير ما تعلم) وهو من مقام البياتي ومن الحان المرحوم داوود حسني معروفا في الموصل ويغني كثيرا فيها • فكان الملا عثمان عندما يصل في غناء هذا الدور الى المقطع (الامر امرك انا مش قايل لك) يصعد بميانة المخالف الموصلي (شرقي دوكاه) مرددا (الامر امرك امرك) الى ان يستقر على هذا المقام ثم يأخذ بالعودة الى لحن الدور نفسه وهذا من فنون الغناء التي لم يسبقه فيها أحد[1] •

وكان الناس يقدرون نبوغ هذا الشيخ فيهرعون لحضور مجالسه وسماع صوته ويكرمونه غاية التكريم في علائقهم الشخصية معه حتى انه

---

(١) يطلق الاستاذ محمد صديق الجليلي على اسلوب الملا عثمان في الغناء اسم اسلوب (الالقاء أو التعبير) الذي يلجأ المطرب فيه الى اعطاء صورة صادقة للكلمة عند غنائها كأنه يحدث المخاطب بها فيكتمل معناها عند السامع ويجعلها تنبض بالحياة وهو الاسلوب الذي يستعمله في الوقت الحاضر المغني اللبناني وديع الصافي كما يقول الاستاذ الجليلي •

عندما عاد من استانبول الى العراق أبت عائلة (خيوكة) الا ان ينزل ضيفا لديها • وكان محمد علي خيوكه[١] وهو والد المغني (حسن خيوكه) من تلاميذه في الغناء والمقامات والموشحات • كما ان عددا كبيرا من المغنين والمطربين في العراق كما في مصر وتركيا كانوا يقصدونه للاخذ من فنونه والاقتباس من مواهبه وقد درسوا عليه فن الغناء والموسيقى وهم كثيرون منهم حسين علي الصفو[٢] وهو من قراء المقامات في الموصل • ومنهم أيضا عبدالرزاق القبانجي[٣] والد المطرب الاستاذ محمد القبانجي وقد اشتغل مع بطانة الملا عثمان في الحفلات والموالد •

ومن تلاميذه ايضا في غناء المقـام العـراقي في الموصل الحـاج سلو الجزمجي[٤] غير ان اشهر تلاميذه في هذا الفن على الاطلاق واقدرهم على أداء الاصوات هو مغني المقام الشهير سيد أحمد الموصلي[٥] الذي

---

(١) محمد علي خيوكه : أحد قراء المقامات والموالد الممتازين في بغداد وقد ولد في محلة جديد حسن باشا ببغداد وتوفي فيها سنة ١٩٠٨م • (المغنون البغداديون والمقام العراقي ـ للحنفي) •

(٢) حسين علي الصفو : أحد قراء المقام المشهورين في الموصل وله تسجيلات صوتية على الاسطوانات الشمعية القديمة المنقولة حديثا على الاشرطة • وكانت وفاته في ٢٠ كانون اول ١٩١١م •

(٣) عبدالرزاق القبانجي: ولد في بغداد سنة ١٨٤٦م واشتغل في غناء المقام العراقي وقراءة الموالد وعرف برخامة الصوت وارتفاع طبقته • وقـد أخذ عنه هذا الفن ابنه محمد القبانجي وغيره • وكانت وفاته في بغداد عام ١٩٣١م •

(٤) الحاج سلو الجزمي : من قراء المقام المشهورين في الموصل وله تسجيلات غنائية على الاسطوانات الشمعية القديمة • توفي في الموصـل في أيلول ١٩٣٣م (جمادي الاولى ١٣٥٢هـ) •

(٥) السيد أحمد عبدالقادر الموصلي (الملقب بابن الـكفر) : من اشهر المغنين الموصليين طوال الفترة الاخيرة • وقد ولد عام ١٨٧٧م ودرس العلوم الدينية على الشيخ عثمان الديوهجي • ودرس الغناء والمقام عـلى الملا عثمان الموصلي وابراهيم العزاوي • وقد سافر الى حلب وملأ عـدة اسطوانات فيها من الاغاني والمقامات العراقية • وكان يغني في المقـاهي

استطاع ان يحافظ على مستواه الفني وشهرته مدة طويلة وقد درس عليه وكان يرافقه كثيرا ويقصده الى بغداد عند اقامة الملا عثمان فيها .

ومن جملة تسجيلات سيد احمد الموصلي قصيدة (للعاشق في الهوى دلائل) التي أخذها عن الملا عثمان . وعندي الآن تسجيلتان لها الاولى بصوت الملا عثمان والثانية بصوت تلميذه سيد احمد الموصلي وفيهما يستطيع المتتبع المقارنة بين هذين الصوتين وتصرفهما في فن الغناء هذه المقارنة التي تنتهي بترجيح صوت الملا عثمان من حيث عذوبته ودقته وحسن ادائه وهذه القصيدة هي من نظم وتلحين الملا عثمان ومطلعها :

للعاشق في الهوى دلائل   لا يسمع من كلام عاذل
يا من رحلوا وخلفوني   ابكي اسفا على المنازل

وهي من الالحان الجميلة جدا والشائعة في الموصل .

وقد مارس الملا عثمان جميع انواع الغناء غير أن اكثر ما كان يمارسه هو غناء الموشحات والمقامات التي تكون غالبا من تلحينه ومن نظمه ايضا . واسلوبه في التلحين عجيب فهو لا يستغرق منه اكثر من بضع دقائق يطرق خلالها مترنما مع نفسه بالنغم ثم ينطلق منشدا الاغنية او الموشح فهو بذلك يعد من اسرع الملحنين في ايجاد اللحن مع اعتبار الدقة فيه ومطابقته لكلمات الانشودة وتأثيره في النفس .

ومن اجمل الموشحات التى قام بتلحينها موشح رائع نظمه الشاعر عبدالباقي العمري وهو يتألف من واحد واربعين مقطعا ، لحن كل مقطع بنغمة خاصة وجعل المقطع الاول كلازمة من مقام البيات الشوري ووزن

والحفلات العامة . ويطرب الموصليون لصوته كثيراً ويزدحمون لسماعه ويهرعون لشراء اسطوانات اغانيه . كما ان الاذاعة العراقية في بغداد تذيع له بعض هذه التسجيلات بين فترة واخرى . وقد توفي في ١٥ شعبان ١٣٦٠هـ (الموافق ٦ أيلول ١٩٤١م) .

السماعي الثقيل[1] • وجاءت نغمات المقاطع آية في الانسجام واولها :

من لصـــب كلـــما هب صبا هب من رقدتـــه في فـــزع
واذا عـــنّ لـــه بـــرق اضا اسعر الاحشـــاء في نار الغضا
ومضه يحكي الحسام المنتضى

اما الموشح التالي فقد قام بتخميسه وتلحينه والاصل للشاعر النحاس وهـــو :

على ورد خديك آس أطل فقلت قد اخضر روض الأمـل
ومذ رمت اقطفه بالقبـــل حميت الاسيل بحد الأســـل
أجل ما لحاظك الا أجل

وهذا موشح صوفي من نظم الشيخ مهدي الرواس لحنه الملا عثمان من نغم السيكاه :

أقلقت قلبي بالجفـــا يا ايها الظبي الجفـــول
بالله انعـــــم بالـــوفا فالشمس مالـــت للافول

وقد مارس الملا عثمان ايضا تلحين الموالات والالحان الشعبية الاخرى فمن ذلك انه قام بتلحين موال عراقي زهيري مسبع من نغم السيكاه نظمه احد الاشراف وقد لحنه الملا عثمان ارتجالا ومطلعه :

نار المحـــبة نبات ضمائري فاطمه ورضيع صبري تعنّد بالهوى فاطمه
من حيث سحب التجافي سيولها فاطمه اضحيت كالحائر المبهوت في كربلا

وكان الملا عثمان في المناسبات الدينية والاحتفالات الموسمية يلحن القصائد الدينية المؤثرة فيدع الناس جميعا يبكون من التأثر فمن ذلك ما حدث اثناء الاحتفال باهـداء خلعـة الى ضريح موسى الكاظم من أحـد الملوك ، وكان الملا عثمان حاضرا فلحن وقتئذ قصيدة عبدالباقي العمري ومطلعها :

---

(١) اعلام الادب والفن •

وافتك يا موسى بن جعفر تحفـة　　منها يلـــوح لنا الطـراز الاول

وغناها من مقام السيكاه بلحن شجي مؤثر فشق مرائر الوف الجمـــوع المحتشدة لشدة البكاء والتأثر بصوته الرخيم وبديع لحنه وانشاده[١] .

ونذكر من الاغاني العاطفية الجميلة التي هي من نظم وتلحين الملا عثمان والتي لا تزال تذاع من محطة الاذاعة العراقية بصوت احد المطربين اغنية (يا خشوف على المكرية) وهي من الالحان الجميلة التي وضعها الملا عثمان من نغم السيكاه وتداولها الناس بوقتها بسرعة . وقد انشدت في حفلة المؤتمر الدولي للموسيقى العربية المنعقد في بغداد[٢] في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني **١٩٦٤** . غير ان الفرقة التي قامت بانشادها لم تحسن ذلك بالشكل الذى كان الملا عثمان او تلاميذه ينشدونها به ولا بالشكل الذي اعتاد على سماعه اهل الموصل بل كان فيه نوع من التحوير الممل ولكن مع ذلك فهو ضرب من تكريم هذا الفنان العبقري الذي خدم الموسيقى بكل قواه بعد مرور ما يقارب النصف قرن على وفاته .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) كان المؤتمر الاول للموسيقى العربية قد عقد في القاهرة عام ١٩٣٢م .

نابغـة الموصل ونادرة الزمان

عثمان الموصلي من أشهر أذكياء العـــالم من العميان • أمثلة على نبوغـه ونـوادر عـن ذكائه • تفريقه بين الاشخاص وتمييزه اشكالهم والوانهم وأعمارهم باللمس أو الصوت • اجادته لعب الشطرنج رغم كونه أعمى وحوادث عجيبة عن فراسته •

يذكر الذين اتصلوا بالملا عثمان الموصلي بانه كان خارق الذكاء جم المواهب وانه اعجوبة من عجائب الدنيا وقل ان نجد له مثيلا بين الناس رغم كونه فاقد البصر منذ طفولته •

ومن المؤكد ان من يفقد بصره يكـــون مرهف الحس ، مستيقظ المواهب ، متفتح العقل ، وان اكثر العميان قد امتازوا باشياء تعوض لهم فقد الباصرة[1] • غير ان الملا عثمان امتاز عن الكثير من العميان وظهر لديه

---

(١) جاء في كتاب نكت الهميان ان مؤلفه صلاح‌الدين الصفدي قال : رأيت أعمى وعمياء كانا في صفد وكانا يضعان الابرة في فمهما ويدخلان الخيط في خرت الابرة •

وحكى في كتابه هذا أيضاً عن الشيخ يحيى بن محمد الخباز الحموي

من الذكاء اكثر مما ظهر لهؤلاء ممن عرفناهم او قرأنا عنهم ، واعطي من المواهب ما لم يعط غيره • فقد كان موسيقيا يعزف على اكثر آلات الطرب برشاقة واتقان • وكان ملحنا موهوبا ، وقارئا للقرآن على القراءات السبع والعشر ، ومنشدا للموشحات والموالد وهي مما ينظمه ويلحنه في آن واحد • مع ما عرف عنه من جمال الصوت وعذوبة النبرة وحسن الاداء ، فضلا عن انه كان اديبا ومؤلفا له عدد من التآليف • وكان شاعرا مبدعا غزير الانتاج ، وقد مارس الصحافة فاصدر مجلة في وقت كان يعز ان تجد فيه صحفيا واحدا في بقاع كثيرة من العالم العربي • وكان متصوفا ومن الاوائل الذين ساهموا في تشكيل المولوية في العراق الحديث • وتذكر مجلة اليقين البغدادية في الجزء السادس عشر عام **١٩٢٣** أن له يداً في العلوم الفلكية يتفوق بها على بعض علماء عصره • كما كان خطيبا مصقعا في المجالات

قال كان عندنا في حماه أعمى اسمه نجم يلعب بالحمام ويصيد الطير الغريب وذلك بان يبخر طيوره ببخور خاص ويطيرها ، فاذا طارت ونزلت ومعها الطير الغريب هدرت فيرمي الشبكة عليها ويأخذها واحداً بعد واحد ويشمه فالطير الذي ليس فيه شيء من البخور يعرف انه غريب •

وقال أيضاً رأيت في الديار المصرية انساناً يعرف بعلاءالدين بن قيران أعمى ويلعب بالشطرنج ويتوجه الى بيت الخلاء ثم يعود الى اللعب ولا يتغير عليه نقل شيىء من القطع •

وقد جاء في كتاب نكت الهميان أيضاً ان الشيخ زين‌الدين الآمدي كان يستدل على الاشخاص بلمس اياديهم ، ويعرف الكتب بلمسها • واذا أمرّ يده على الصفحة متلمساً كتابتها قال عدد اسطر هذه الصفحة كذا سطراً وفيها كذا وكذا من العناوين • وان اتفق انها كتبت بخطين أو ثلاثة قال : اختلف الخط من هنا الى هنا • واذا اشترى كتاباً جديداً أخذ قطعة ورق خفيفة وفتل منها فتيلة لطيفة وصنع منها ارقاماً بثمن الكتاب ثم يلصق ذلك على جلد الكتاب من الداخل ويلصق فوقه قطعة ورق فاذا لمس ذلك الموضع بعدئذ عرف ثمنه من بروز الكتابة فيه • (أقول) ويدل ذلك على ان العرب هم أول من توصل الى طريقة (برايل) المعروفة الآن وهي قراءة العميان للكتابة البارزة بعد تلمسها باناملهم •

السياسية والوطنية والدينية ، وكان يخطب ارتجالا لساعات طويلة ٠

والى جانب ذلك يذكر لنا المعمرون الذين عاصروه انه لا يماثله احد من الناس في التعرف على الاشخاص من لمس اياديهم فهو اعجوبة في دلك حتى انه يفرق بين يد الرجل والمرأة ويقدر العمر من اللمس ويتذكر اصدقاءه القدامى بمجرد ان يمسك يدهم او يتحسسها حتى لو بقوا صامتين لا ينبسون بحرف واحد ٠ فلو كان احد الاشخاص طفلا ولمس يده ثم بعد سنين طويلة لمس يده ثانية وقد اصبح شابا فانه سرعان ما يتذكره ويعرفه ويذكر اين وقبل كم التقى به كما حدث ذلك مع كثير من الناس الذين تركهم اطفالا قبل سفره الى استانبول ثم رجع الى الموصل فوجدهم شبابا ورجالا فعرفهم بمجرد لمس يدهم واخذ يسألهم عن آبائهم وذوي قرابتهم ٠

كما ان قصصا غريبة يرويها كثير من الثقاة حضروها وشاهدوها بانفسهم تؤكد ما قيل عنه ومن اغرب نوادره ما يذكره السيد فائق الحاج ابراهيم دلال باشي وهو من المعاصرين القلائل الذين التقوا مع الملا عثمان وحفظوا اخباره ونوادره وعمره الآن ثمانون سنة قال استصحبني والدي مرة وكان يريد زيارة الملا عثمان بعد رجوعه من استانبول وكنت قد سمعت عن اخباره الشيء الكثير ولم اكن قد رأيته من قبل بل لم اولد بعد عندما غادر الموصل الى استانبول ٠ وعندئذ قال لي والدي ونحن قد صرنا عند باب مسجد شمس الدين : قف انت هنا قليلا وسأدخل انا وحدي ٠ ثم دخل المسجد المذكور وقد جلس الملا عثمان في الرواق وكان الناس يدخلون ويسلمون عليه ويرحبون بمقدمه فيرد على تحياتهم ويلاطفهم وبعد ان دخل عدد كبير من الناس عزمت على الدخول ثم على اثر بعض الداخلين دخلت واقتربت منه وسلمت عليه وقبلت يده وعندئذ امسك بيدي واخذ يتحسسها بيديه الاثنتين ثم استوقفني وهو يتلفت يمينا وشمالا ويقول : ابراهيم اين انت

يا ابراهيم ؟ اليس هذا ابنك ؟ فتعجب الحاضرون من فراسته وقال له والدي : نعم انه ابني فائق •

ويروى انه يتذكر الاشخاص الذين كان قد التقى بهم منذ زمن بعيد بمجرد ان يسمع اصواتهم ومن نوادر ذلك ما يذكره فائق دلال باشي ايضا وهو انه كان مرة في مجلس الملا عثمان وكان كثير من فضلاء القوم وادبائهم جالسين وكان الحديث بينهم ذا شجون واذا بالمرحوم الحاج محمد النجفي يدخل المجلس ويلقي السلام على الحاضرين ثم يجلس بينهم فالتفت احدهم وقال للملا عثمان الذي يتصدر المجلس : هل علمت من هو هذا القادم يا عثمان افندي ؟ فقال الملا عثمان : ليتكلم أمامي كلمة • فتكلم النجفي سائلا اياه : كيف حالك يا عثمان افندي ؟ فوجم الملا عثمان قليلا ثم وضع يديه على رأسه وهو يقول (لقد التقيت والله مع صاحب هذا الصوت ايام الحج في منى قبل ثلاث وثلاثين سنة) • فقال النجفي : لقد صدق والله فقد كان عمري سبع سنين وقتئذ ونحن نؤدي فريضة الحج في منى وانا عمري الآن اربعون سنة) •

وقد جاء في مجلة اليقين الصادرة في بغداد عام ١٩٢٣م انه اذا سمع صوت احد من الناس عرف اوصافه من طول وقصر وبياض وسواد وغير ذلك • فاما ما يذكر عنه من انه يعرف الشخص المتكلم ان كان طويلا او قصيرا بمجرد سماع صوته فهذا ما يذكرني بقصة تروى عن ابي العيناء وهي ان احد الناس سلم على ابي العيناء الاديب الاعمى في زمن العباسيين فقال له ابو العيناء : من انت ؟ قال انا فلان • قال له : عهدي بصوتك يرتفع اليّ من اسفل الى اعلى فما باله ينحدر عليّ من علو ؟ قال : لأني راكب • وهكذا كان اتجاه الصوت من اسفل او من اعلى او مما بين ذلك يدل على مدى ارتفاع مصدر الصوت او بالاحرى طول الشخص المتكلم • وبهذه

القصة نفسر ما يقال عن معرفة الملا عثمان لطول الشخص عند سماعه صوته •

واما عن معرفته لون الشخص ان كان اسود ام ابيض لمجرد سماعه صوته (او ربما لمسه بيده) فهذا ما اكده لي الشيخ الاستاذ محمد صالح الجوادي بقصة رواها وكان حاضرها في دار المرحوم الحاج شيت الجومرد فقد زاره مرة الملا عثمان في تلك الدار فجاءه خادم اسود بالقهوة فشربها ثم التفت الى الحاج شيت قائلا له (القهوة جيدة ولكنها من يد اسود) فتعجبوا لقوله لانه لا يعلم ان في الدار خادما اسود •

وتروى قصص كثيرة ونوادر عجيبة يستدل بها على ذكاء الملا عثمان وفراسته • منها ما رواه الاديب الاستاذ عبداللطيف ثنيان • قال سافر الملا عثمان مرة الى بيروت وهو لا يعرف احدا فيها • وكان هناك المرحوم صالح افندي السويدي فسمع بقدومه وجاء اليه لزيارته ثم تقدم منه بهدوء وصافحه دون ان ينطق بكلمة واحدة فاخذ يده وصار يتلمسها هنيهة ثم فاجأه وهو يقول له (سويدي ما الذي جاء بك الى هنا ؟) • وكان لا يعلم بوجود صاحبه في بيروت •

وروى ايضا ان المرحوم رؤوف افندي بن حسن الشربتجي الموصلي قال انه دخل جامعا في استانبول فوجد الشيخ عثمان جالسا للوعظ • قال فجلست في ناحية قريبا منه ففطن بأن الجالس ليس من المستمعين على العادة • قال فتطال الي وسألني (افندي كم الساعة ؟) فاجتهدت بتغيير صوتي وقلت بالتركية (العاشرة والنصف) فقال (رؤوف حسن هل تحتاج الى التكتم عني ؟) •

قال ومررت معه ليلة في سوق • وبينما نحن نسير ونتحدث اذ ضربت بعصاي باب حانوت وقلت له : هذا حانوت صاحبك فلان فقال : كلا بل الحانوت الآخر الذي يليه •

وروى هذا الاديب ايضا بان الملا عثمان فتح مع شريك له حانوتا في استانبول لبيع الكتب فما جاءه احد يطلب كتابا في غياب شريكه الا ومد يده وسلمه اياه بصورة يعجز ذوو الابصار عن مثلها ٠

ومما يروى ايضا عن ذكاء الملا عثمان انه كان في استانبول فزار مرة احد التجار الموصليين المقيمين هناك ٠ وكان هذا التاجر يقيم في فندق على طرز خانات المسافرين الشائعة في ذلك الوقت ٠ فشكى اليه التاجر انه قد سرق منه ابريق نحاسي كان قد جاء به من الموصل وهو يعتز به كثيرا وانه لم يعثر له على اثر رغم كثرة البحث عنه فقال له الملا عثمان : لعلك تعثر عليه يوما ما ٠

وبعد مرور ما يقارب السنة كان الملا عثمان في زيارة هذا التاجر نفسه في فندقه وبينما كانا جالسين يتبادلان الحديث التفت الملا عثمان فجأة الى صاحبه وقال له : قم خذ ابريقك من على السطح ٠ فتعجب صاحبه التاجر وقال له : كيف ذلك وانت لا تعرف عن الابريق شيئاً ؟ فقال له : لقد سمعت صدمة ابريق موصلي على السطح ولابد انه ابريقك اذ لم اسمع مثل هذه الصدمة من قبل في استانبول ٠ فما كان من التاجر الا وصعد الى سطح الفندق فوجد ابريقه في يد احد الخدم الذين يعملون في الفندق فاخذه منه ٠

ويروي المؤلفون الذين كتبوا عن حياته انه يجيد لعب الشطرنج(١) بالاضافة الى الالعاب الاخرى كالدامة وغيرها على الرغم مما في ذلك من صعوبة بالنسبة لمن فقد بصره كالملا عثمان ٠ ومن المعروف في التاريخ ان عددا من العميان كانوا يجيدون لعب الشطرنج منهم علاء الدين بن قيران الاعمى وكان يعيش في مصر ومنهم احمد بن صدقة الماهنوسي الضرير وكان مقيما في قوسان وكذلك ابو العلاء المعري الذي يروى انه شوهد وهو

---

(١) مجلة اليقين الجزء ١٦ عام ١٩٢٣ ومجلة لغة العرب ـ تشرين الثاني ١٩٢٦ ٠

يلعب الشطرنج وغيرهم كثيرون[1] • وليس عجيبا ان يكون الملا عثمان كذلك وقد اظهر من نوادر ذكائه ما هو اعجب من لعب الشطرنج •

ومما عرف عن الملا عثمان ايضا انه كان قوي الذاكرة سريع الحفظ حتى انه يحفظ القصائد الطويلة بمجرد تلاوتها عليه • وقد روى شيخه العلامة الامام محمود شكري الآلوسي انه عندما جاءه الملا عثمان ليدرس عليه علوم اللغة العربية اشترط عليه حفظ دروسه عن ظهر غيب قال فتبسم الملا عثمان مستسهلا هذا الشرط فكان لا يمر على الدرس مرة واحدة الا وحفظه بنصه من غير ان ينقص منه او يزيد عليه •

ومما يرويه عنه الاستاذ محمد بهجة الاثري انه يعرف الشخص من قرع نعليه عند المشي وهذا يؤكد ما رواه الاستاذ فائق دلال باشي من انه كان يقيم مرة ضيفا في دار والده الحاج ابراهيم دلال باشي فكانت نسوة الدار يخدمنه • فسأله مرة رؤوف وهو اخ للحاج ابراهيم يمازحه قائلا : اخبرني بربك يا ملا عثمان اي نساء الدار اجمل ؟ فقال له دعني فأنا رجل اعمى • فقال له استحلفك بالله اخبرني ما سألتك عنه • قال ، عندئذ بدأ الملا عثمان يذكر اوصافهن كما هي ، كأنه قد رآهن بعينيه وقال انه يعرفهن ويفرق بينهن من صوت مشيتهن •

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان ـ الصفدي •

في رياض الأدب والشعر

الملا عثمان كـأديب ته اسلوبه ومكانته المرموقة بين أدباء عصره • نماذج من كتاباته • وهو كشاعر له شعره الجيد وقصائده الرنانة • اجادته التاريخ بالشعر • مؤلفاته والكتب التي قام بطبعها •

من الطبيعي ان نجد الملا عثمان اديبا في منزلة رفيعة بين ادباء عصره فهو قد درس القرآن بمعانيه وتفسيره وبلاغته ولهجاته وامتزجت به روحه حتى حفظه بالفاظه وحروفه وحسب اختلاف نطق القبائل العربية اليمانية والحجازية ولهجاتها وذلك عندما درس القراءات السبع والعشر • ثم درس قواعد اللغة العربية وبلاغتها ومارس نظم الشعر باللغتين العربية والتركية ، واختلط بالادباء ورجال الفكر في بلاط الخليفة العثماني وفي قصور رجال الدولة والقادة ، وهو الموصوف بارهاف الحس وسلامة الذوق الفني • ولذلك نجده وقد اجاد في ادبه وشعره كما اجاد في فنه وعلمه حتى ليعجب المرء كيف وجد الشيخ عثمان متسعا من الوقت لنظم القصائد الطويلة وتأليف الكتب الكثيرة وهو في كل وقت منصرف الى حفلة او درس أو قراءة او اجتماع •

ولكن الرجل كان ولا شك ذا موهبة وطاقة جديرتين بالاعجاب •

ويمتاز اسلوب الملا عثمان في الكتابة بدقـة الوصف وكثرة التشبيه والاشتقاق من الالفاظ وان كان لا يختلف كثيرا عن اسلوب ادباء ذلك العصر الذي يتصف بترديد المترادفات ذات المعنى الواحد وتكريرها واهتمام الاديب باللفظ قبل المعنى وهو الاسلوب الشائع عند الادباء العرب في ايام الدولة العثمانية • ومع ذلك فان لعثمان الموصلي أدبه الرقيق المتزن الذي نلاحظه في كتاباته الكثيرة ضمن تآليفه وفي الرسائل والمقدمات والتقاريظ التي يكتبها لغيره من المؤلفين والكتاب وهو يدل على علو كعبه في اللغـة والادب وحسن العبارة • فمن ذلك ما كتبه في مقدمة كتابه المسمى (الابكار الحسان) فقد جاء فيها قوله : (احمد من اسبغ علينا من سوابغ المانحات نشبا ، وبلـّغنا بالباقيات الصالحات أربا ، ونظمنا في سلك مداح اهل العبا[1]، واصلي واسلم على حبيبه المجتبى ، وآله الذين تمهدت بهداهم فدافد وربى ، وصحبه الذين بمجاراتهم ضالع الضلال كبا) ويلاحظ في هذا الاسلوب كثرة السجع الذي يلتزمه الملا عثمان كليا في بعض الاحيان او يتخلى عنه قليلا في احيان اخرى •

ويذكر عند تخميسه لقصيدة عبدالباقي العمري في رثاء الحسين واصفا هذه القصيدة قوله (تنشر لديها برود القصائد ، وتنثر عندها افئدة الفرائد ، وكانت كالعروس العذراء ما افتضها شاعر[2] ولا اقتحمها ناثر لما تحصنت به من حسن السبك والانشاء خصوصا فيما اثارته من مؤثرات الرثاء ، والمعفر بغباره وجه الغبراء ، قدمت على تخميسها مقرا بعدم استطاعتي وقلة بضاعتي

---

(١) وهم الذين يمدحون أهل بيت الرسول •

(٢) اشارة الى انه هو أول شاعر يقوم بتخميسها ولم يتعرض لهـا من قبل أي شاعر أو ناثر بالتخميس أو الشرح أو التعليق كأنها بنت باكرة لم يقربها أحد قبله •

وذاك لكوني محبا لبيتهم ومقتبسا من نور زيتهم ، لهذا شمرت عن ساعد الجد لتسميطها طلبا للثواب ومحبة لآل النبي الاوّاب)[١] ٠

ويقول في مقدمته لتخميس لامية البوصيري وهو يصف نفسه عندما عزم على تخميسها : (فشمرت عن ساعد الجد مع علمي انني ليس لي حد ٠ وقدمت على تخميسها اقدم رجلا وأؤخر اخرى[٢] مستمدا بروحانية ابي الزهراء (ص) حتى اتممت رفع قواعد ابياتها العالية الاطناب ، فجاءت ولله الحمد بمدده (ص) من العجب العجاب وسميتها « الهـدية الشامية على القصيدة اللامية في مدح خير البرية » لكوني خمستها في الشام المحمية) ٠

ولا يخلو اسلوب الملا عثمان من الكلمات الغريبة المعنى غير انه يحسن استعمالها بحيث يجعلها تنبض بالحياة ٠ كما انه يأخذ من الكلمات جميع معانيها مستعملا اياها على مختلف اوجهها كما فعل في تعليقه على كتاب (التحفة الايقاظية في الرحلة الحجازية) لمؤلفه سليمان فيضي حيث يقول : (الحمد لله الآخذ بناصية كل مرقلة وماشية ، والمطرز في زوايا الارض من عوالم الحكم كل حاشية ، والصلاة والسلام على المستيقظ الاول والموقظ الذي عليه المعول ٠٠ محمد التحفة الاولى البارزة من عالم العمأ الناتج عنها جميع التحف ، والشريف الذي انجب عنه غصن كل شرف ، والساير الصابر ، والعبد الشاكر ، الامين في الحل والترحال ، والمأمون على الرخيص والغال ، والمعصوم في ثباته وسيره والممتاز من خلق الله عن غيره ، وعترته سفينة السير الى طريق الخير[٣] ٠٠ واصحابه الذين سهلوا طرق الهدى ٠٠

---

(١) الابكار الحسان في مدح سيد الاكوان ــ عثمان الموصلي ٠

(٢) وهو وصف جميل كناية عن التردد والتخوف من الاقدام على تخميسها لصعوبة ذلك ٠

(٣) اختار الكلمات السابقة وما بعدها من السير والترحال تعريضاً بموضوع الكتاب ٠

وبعد فقد كحلت بمرود اذني بصيرتي لا بصري[1] واجلت معتليا سرج ناظر قلبي لا نظري[2] ، في تحفة من أشهى التحف وطرفه من ابهى الطرف تهدي كل سالك الى اقوم المسالك ، وتعين كل طائف على اكتساب الفيوضات واللطائف ، وتستنهض همة كل ساع الى حسن المساعي .. سماها التحفة الايقاظية لكل ذي قلب ، فلعمر الحق انها خالية عن الزيف والقلب . فهي للمنصف طلع وطل وللمسرف لهب شواظية :

هذا سليمان وذي رحلته   فيها على همته اثبات
ان انكر الاعداء بعض فضله   تعنتا او سفهاً قل هاتوا[3]

جعل الله آثاره منشورة وسريرته بدينه معمورة واعلى الله له بغربته مقاما ، وحفظه بدءاً وختاما . واذ لم اجد على قصر الباع وسقط المتاع بدا من امتثاله وتحسين مقاله علقت عليها تلك الفقرات واشفعتها بهذه الابيات :

اغتنم تحفة السراة وطالع   لا تدعها فان فيها البدائع
انبأتنا عن الحجاز ومصر   وكمالٍ باهلها اليوم شايع
حبرتها يدا سليمان فيضي   اخبرتنا عن طيبه وهو ضايع
حين ما راق طبعها ارخوها   (يألف الطبع تحفة للمطالع)[4]

كما يلاحظ في كتابات الملا عثمان الاسلوب التصوفي الذي غلب عليه

---

(١) اشارة الى كونه أعمى قريء عليه الكتاب فسمعه باذنه ولم يقرأه بعينيه .

(٢) وكذلك فقد أصبح هنا فارساً يمتطي ظهر بصيرته لا معتمداً على نظره .

(٣) يشير الى الآية الكريمة (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) .

(٤) يجعل من حروف البيت الاخير تاريخاً لطبع هذا الكتاب وهو عام ١٣٣١هـ . كما انه ختم هذا التقريظ عند التوقيع عليه بقوله (حرره وما حبره) كناية عن انه كتبه ولكنه لم يحبره بيده بل املاه على شخص ليكتبه .

ويظهر ذلك واضحا في المقدمة التي كتبها عند تقديم كتاب الترياق الفاروقي الذي قام بطبعه : (احمد الله الباقي الذي نظم هذه الاكوان بسمط قدره ، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، واصلي واسلم على من داوى قلوب اولي الالباب بترياق الفصاحة والادب ، فشفاها من الاوصاب وحماها من العلل والريب ، المصطفى السامي على الرسل طرا المؤيد بالبراهين والذكرى ، المبعوث بهما الى خير امة ، القائل ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة ، المنعوت نوره من خيار الى خيار والمنوه عنه بأول العابدين والمودوع في الاصلاب الاطهار) .

هذا ما يخص موضوع النثر عند الملا عثمان . اما ما يتعلق بموضوع الشعر عنده فنذكر اولا آراء الادباء والمعلقين واختلافهم حول ذلك . على ان اكثرهم كانوا يشيدون بشعره معتبرين الملا عثمان من طبقة الشعراء الممتازين فان الاديب احمد عزة باشا العمري كان يصف شعر الملا عثمان بأنه (مثل شعوره يتساقط فراش المضامين على مشكاة نوره ، يذوب نظمه حلاوة ويكتسي نثره طلاوة) وذلك في معرض حديثه عنه في كتابه (العقود الجوهرية) .

اما شاعر الحدباء المرحوم اسماعيل فرج فانه يكثر من الاشادة بشعر الملا عثمان ويفيض عليه بالمدح فيقول واصفا شعره بانه (ترنيمة الواعظين وخمرة الشاربين ، وانشودة المنشدين ، ناصع البيان بديع الالفاظ غزير المعاني ، اذا تلا عليك منه قصيدة اثارت فيك احساسا معنويا بما تحويه من العواطف الرقيقة والمعاني الدقيقة والاحساسات الطيبة ، يترقرق فيها ماء الحياة ثم يفيض فيجري سلسلا في عذب سلاستها وتكاد تلمس الروعة مجسمة وتشاهد الجمال يتألق في اسلوبها العربي الفخم . شعر يملأ حواسك ابتهاجا وشعورك طربا فتحس بانه يطير بروحك حيث السرور المبهج والبهجة السارة) .

هكذا يصفه الشاعر المرحوم اسماعيل فرج في معرض حديثه عنه في مجلة الجزيرة الموصلية ، وبما يقرب من ذلك يصفه الرواة والادباء الآخرون . غير انني وجدت رأي الاستاذ عبداللطيف ثنيان هو الأصوب والاقرب الى الحقيقة عندما يصف شعر الملا عثمان بانه (ليس بالعالي الجزل بل يجمع الجزل والركيك)[1] فان لديه شعرا جيدا وشعرا وسطا بين الجودة والضعف وبعضا من الشعر الضعيف الذي آثرت ان لا انشره هنا في هذا البحث كالقصيدة التي نظمها في مدح وفد الموصل[2] الذي سافر الى بغداد لاستقبال الامير فيصل ومطلعها :

اهلا بوفد المجد والفخر والعلا   تشريفكم شرفي وغاية مأملي

وغيرها من القصائد والابيات المتفرقة التى يظهر فيها التكلف والضعف وانك لتجد في القصيدة الواحد ابياتا جيدة وابياتا رديئة في الوقت نفسه . غير ان لديه من القصائد الجيدة ما يعوض به عن ذلك الضعف .

والمعروف عن الملا عثمان انه كان كثير الحفظ للاشعار والقصائد المختلفة حتى ان الشعر يجري على لسانه مجرى الامثال والمواعظ فهو يحفظ للشعراء الجاهلين والاسلاميين والمتأخرين الى جانب ما يستظهره من أدب النثر وغيره . ولكنه كثير الاهتمام بالشعر الديني والتصوفي ولذلك نجد اكثر شعره في مدح الرسول وآل بيته وفي التصوف . وقليل من شعره في

---

(١) عبداللطيف ثنيان ـ مجلة لغة العرب ج ٦ عام ١٩٢٦ .
(٢) كان ذلك في تموز ١٩٢١ قبل تنصيب الامير فيصل ملكاً على العراق (الملك فيصل الاول فيما بعد) وكان الوفد الذي سافر لاستقباله يمثل نخبة من شخصيات الموصل وعلمائها منهم المرحومين محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل والحاج عبدالله النعمة وعثمان الديوه‌جي ونامق قاسم اغا وضياء آل شريف بك وآصف وفائي ومصطفى الصابونجي وأمين المفتى وداوود يوسفاني .

المديح والتقريظ والمناسبات كالرثاء والتهاني وغيرها .

فمن شعر التهاني ما قاله في تهنئة الشيخ العلامة عثمان الديوهجي عند تعيينه قاضيا لبغداد نذكر منه الابيات الثلاثة الاولى :

اليوم قام للهدى شان وقد علا للشرع بنيان
لما رقى عثمان كرسيه ولاح من شدقيه تبيان
بالحق منه الصك خط القضا فكل سطر منه ديوان(1)

كما نجد في شعره اغراضا اخرى ففي القصيدة التي يفتتح بها ديوان عبدالباقي العمري والتي يمتدح في مطلعها عائلة العمري في الموصل بقوله :

ان آل الفاروق آل العلاء كلهم تاج ارؤس الرؤساء
حق للكل منهم ان ينادي في نوادي الفخار اي نداء
عمر جدنا ابو الفتح والعدل وحكم الفضل السويّ السواء
ليس يعلو فخارنا وعلانا غير آل النبي والزهراء

نجده في هذه القصيدة يأتي بابيات في الوصف والتشبيه في غاية الجودة والدقة مثل قوله مشبها قصائد العمري بالاعمال الصالحة التي يجزى بها صاحبها :

باقيات بها له الذكر باق صالحات له بدار البقاء

وقوله مشبها الفاظها ومعانيها بالخمر والماء عندما يمتزجان :

ونسيب الفاظه والمعاني ناسبت بعضها كخمر وماء

وقوله عند تعرضه لموقعة كربلاء واستشهاد الحسين فيها :

فلو ان الخنساء حال بكاها سمعت منه بعض هذا البكاء

---

(1) تاريخ علماء الموصل .

نسيت صخرها وشقت جيوبا   لمصاب الحسين في كربلا[1]

ولكن جيد شعره ما قاله في مدح الشيخ احمد الرفاعي وذلك بعد انتسابه الى الطريقة الرفاعية • وقد قال في ذلك عدة قصائد نذكر في ما يلي معظم ابياتها منها القصيدة التالية :

بني المصطفى قلب المتيم قد أبدى   لكم فرط وجد لا لسلمى ولاسعدى
الستم ملاذ المحتمي بجنابكم   اذا ما عليه حادث الزمن اشتدا
ابوكم ابو السبطين زوج سليلة الـ   تهامي من بالهدى عم الورى رشدا
نبي له الرسل الكرام نواصر   بهذا عليهم ربهم اخذ العهدا
لقد سدتمو اصلا وفرعا وكيف لا   وان الرفاعي من عصابتكم عدا
فذاك امام الاولياء وتاجهم   واطولهم باعا وارفعهم مجدا
واقربهم من حضرة الحق وصلة   واسمحهم طبعا واكثرهم زهدا
وذاك امام المسلمين وشيخهم   فكم سنة احيا وكم بدعة اودى
فاحمدهم[2] صياد اسرار جد   وشيخ الهدى والعلم قد اكثر الصيدا
فيا آل فتان القلوب تداركوا   لمن جعل الاشعار في مدحكم وِردا
احبتنا آل الرفاعي تعطفوا   بوصل على من روحه لكم تفدى
صلوني صلوني آل طه بحبلكم   وما ضر لو صيرتموني لكم عبدا

ومن هذه القصائد ايضا القصيدة التالية ويظهر فيها الاتجاه الصوفي عنده وهي من بحر البسيط :

قلبي بحبكموا والله قد جذبا   وظل فيكم عن الاغيار محتجبا
غدوت بين الورى ادعى بخادمكم   حتى تبلغت من جدواكم الاربا
سماء مظهر حق للورى بكم   على سواد الدياجي ابرزت شهبا

---

(١) الترياق الفاروقي •
(٢) يقصد الممدوح الشيخ أحمد الرفاعي وهو من أحفاد الرسول •

عم الانام نـــدى عليـــاكم وكفى ... ان الـــرفاعي من اشبالـــكم نسبا

ذاك الولي الذي ديـــوان دولته ... بين الرجـــال مع التأييد قد نصبا

اسباطه ســلكو آثـــاره فرقـــوا ... مقام خير وحازوا العلم والادبـــا

وان مظـــهر اســـرار به جمعت ... ابو الهدى الشهم من ساد الورى حسبا

شيخي وعوني على كل النوائب في ... الدنيا والاخرى وقلبي عن سواه ابى

كل الحظوظ من الدنيا الدنيئة قد ... اتته راغمـــة تبغى به رتبا

محمد بن سمي المنتقى حسن الـ ... افعال نجل ابنة الهادي اذا انتسبا

شيخ تصدى لارشاد الانام لـــذا ... نال المنى من على خدامـــه حسبا

ابا الهدى وسراج الدين يا أملي ... والله ان فؤادي عنـك مـا رغبـــا

يا آل احمد قـــد وافيت منكسرا ... لعز بابكـــمو بالـــذل مكتئبا

يا آل بيت ابي الغرّ المشـــفع من ... بوصفه حير الاعجـــام والعـــربا

عثمان امسى ولوعا حول ساحتكم ... يذب عن غيظ اهليه ولو ضـــربا

صلاة ربي عليكم كلما نشـــدت ... قلبي بحبـكموا والله قد جـــذبا

وهذه قصيدة اخرى في مدح السيد الرفاعي وقد اجاد فيها وهي :

ماذا علي اذا خلعـــت عـــذاري ... بهوى الملاح وحدت عن اشعاري ؟

وهجرت عذالي وما طاوعتهـــم ... وهنكت في شرع الهوى استاري ؟

يا لائمي كيـــف السلو ومهجتي ... ذابت الى كم يا عـــذول اماري ؟

او ينثني عن حب غزلان الفـــلا ... صب به وجـــد الصبابة ساري

افلا يبوح بحبهـــم وهـــو الـــذي ... قامت شـــواهده بلا انكـــار

فـــدع الملام وخلنـــي ومصيبتي ... وتلهفي وتلـــوعي وضـــراري

لا اســـتطيع دفـــاع ما قاسيته ... اذ جد بي وجدي وشـط مزاري

الا بهمـــة آل طـــه المصطفى ... وابن الـــرفاعي الفارس المغـــوار

ذاك الذي تنبو السوف لذكـــره ... وبـــه يروع كـــل ليـث ضاري

والنار تخمد حين يدعى باسمه   سراً واين لهيب تلك النار
برهانه بالصدق يشهد انه   قطب عن الدعوى العريضة عاري
فالاولياء تدور حول مداره   مثل النجوم على المدار سواري
ولقد جرى وجروا لغايات العلى   فحوى السباق بذلك المضمار
يحمي المريد بهمة علوية   من كيد كل معاند جبار
لله يا شيخ العواجز في الدنا   يا من زهت بمديحه اشعاري
عطفا علي فانت اكرم ناصر   لمهاجر يبغى حمى الانصار
خذها من الداعي اليك خريدة   يرجو النجاة بها بتلك الدار

ومن هذه القصائد القصيدة التالية وهي من بحر الوافر وقد قالها في مدح السيد الرفاعي ايضا[1] :

الا هل من مريح او معين   يروّح مهجة الصب الحزين
بذكر الغور او بظباء نجد   يساعده على الوجد الكمين
فيا كبدي القريح ويا دموعي   لذي الزفرات هل لك ان تعيني ؟
ويا آل العقيق وآل سلمى   ويا من حبهم هديي وديني
عدوني وامطلوا وعدي فاني   رضيت لكم مماطلة الديون
ابيت سواكم وصلا فجودوا   فقد قطع الهوى مني وتيني
لذكراكم فؤاد الصب امسى   يحن حنين ثاكلة البنين
زمام الحب فيكم قاد طبعي   لحب الغوث ذي العزم المكين
ابي العلمين صاحب كل فضل   وقطب ذوي المكارم والشؤون
مراد لا يراع له مريد   ولا يخشى به ريب المنون

---

(١) هذه القصيدة وما قبلها مقتبسة من كتاب العقود الجوهرية في مدائح الحضرة الرفاعية ـ لأحمد عزة باشا العمري ، وقد روجعت على قصائد مخطوطة للناظم ٠

يقينـــي في وداد بني الـــرفاعي وصدقي في محبتهم يقيـــــني

بني الصياد يـا أملي الســـــتم على اعتابكـــــم اوقفتمـــوني

تحقـق عندكم صـدقي وحبي بنفحتـــكم فهـــلا تشـــملوني

شكوت لجدكم خـــير البـــرايا واسـكبت المدامـــع من عيـــوني

فذاك ابو البتـــول ومن اضـاءت به ارض المحصّب والحجـــون

فهل يحمي النزيل سوى حمـــاه اذا عضته انيـــاب الســـــنين

وان قطع الزمـــــان له حبـــالا تمسـك منـه بالحبل المتـــين

وكثيرا ما نجد في شعر الملا عثمان فنونا شعرية مختلفة لفظية او معنوية منها تلك التي اشبه ما تكون (بلزوم ما لا يلزم) • من ذلك التزامه بوضع اسماء السور القرآنية حسب ترتيبها في القرآن متضمنا بها ابيات قصيدة يمتدح بها الرسول وهي على نهج قصيدة البردة المعروفة وقد اجاد فيها كثيرا لا سيما باشتقاق المعاني من اسماء السور للحصول على معنى يمتدح به الرسول الكريم وقد نشرها في كتابه (سعادة الدارين) المطبوع في استانبول سنة ١٣١٨هـ • والقصيدة هي :

يا رب ادعوك بالمختار من قـــدم فاسمح(بفاتحة)[1] الاحسان والكرم

---

(١) ان الكلمات التي وضعناها بين قوسين في هذا البيت والابيات الاخرى من القصيدة هي الكلمات التي تدل على اسماء السور التي يتكون منها القرآن المجيد وعددها ١١٤ سورة وهي مذكورة هنا في القصيدة حسب ترتيبها في القرآن وأولها سورة الفاتحة كما هو واضح ثم تليها سورة البقرة ثم بقية السور كالآتي : الفاتحة • البقرة • آل عمران • النساء • المائدة • الانعام • الاعراف • الانفال • براءة • يونس • هود • يوسف • الرعد • ابراهيم • الحجر • النحل • الاسراء • الكهف • مريم • طه • الانبياء • الحج • المؤمنون • النور • الفرقان • الشعراء • النمل • القصص • العنكبوت • الروم • لقمان • السجدة • الاحزاب • سبا • فاطر • ياسين • الصافات • ص • الزمر • غافر • فصلت • الشورى • الزخرف • الدخان •

آيات احمد لاحت فالاولى صرفوا ... عنها فهم (بقر) من جملة النعم

و (آل عمران) سادوا الكائنات به ... رجالهم و (النسا) فازوا بفخرهم

قد مد بالفضل والاكرام (مائدة) ... لنا ولم تحرم (الانعام) من نعم

مهما تماديت في (الاعراف) لي طمع ... وحسن ظن بذخري كاشف الغمم

كما ابحت له (الانفال) نحن به ... نرجو (البراءة) من سيل الردى العرم

لو ضل (يونس) عن زخار نائله ... لظل للبعث في احشاء ملتقم

هاد به قد نجا (هود) واسرته ... من مهلك حل في عاد وحزبهم

ونال (يوسف) منه الحسن فارتفعت ... علياه في مصر واستعلت على الهرم

ايديه سحب بلا (رعد) تسح لنا ... بها نجا البر (ابراهيم) من ضرم

بنيان (حجر) الهدى سام بامته ... و (النحل) يرشف منه حلو صوتهم

حصنته ليلة (الاسرا) فكان لنا ... (كهفا) يقينا نزول الحادث العمم

عيسى بن (مريم) أنْبَا حال دعوته ... بان (طه) امام الرسل كلهم

ونوهت عنه كتب (الانبياء) كما ... (بالحج) امته سادت على الامم

(المؤمنون) رأوه (نورهم) فهدوا ... من فرق (فرقانه) للمنهج الامم

قد غادر (الشعرا) (كالنمل) هائمة ... اذ جاء في (قصص) تنبيك عن ارم

ويوم هاجر حاك (العنكبوت) له ... بيتا على باب غار المجد والكرم

بالسيف داوى رؤوس (الروم) منصلتا ... ونال (لقمان) عنه حكمة الحكم

الجاثية • الاحقاف • القتال • الفتح • الحجرات • ق • الذاريات • الطور • النجم • القمر • الرحمن • الواقعة • الحديد • المجادلة • الحشر • الممتحنة • الصف • الجمعة • المنافقون • التغابن • الطلاق • التحريم • الملك • ن والقلم • الحاقة • المعارج • نوح • الجن • المزمل • المدثر • القيامة • الانسان • المرسلات • النبأ • النازعات • عبس • التكوير • الانفطار • المطففين • الانشقاق • البروج • الطارق • الاعلى • الغاشية • الفجر • البلد • الشمس • الليل • الضحى • الانشراح • التين • العلق • القدر • لم يكن • الزلزلة • العاديات • القارعة • التكاثر • العصر • الهمزة • الفيل • قريش • الماعون • الكوثر • الكافرون • النصر • تبت • الاخلاص • الفلق • الناس •

(بسجدة)هزم (الاحزاب)يوم (سبا) كبارهم (فاطرا) اكباد عزمهم
ما آب باليأس من (ياسين) ذو امل (صافات) احسانه فاقت على الديم
بهديه للهدى كم (صاد) من (زمر) و (غافر) الذنب وفىّ طول اجرهم
كم منه (فصلت) (الشورى) باسرنه و (زخرف) القول ولى شر منهزم
(دخان) ذنبي اعماني على كبري والنفس (جاثية) في ساحة الهرم
(احقاف) جرمي قد انهالت علي وما قاتلتها (بقتال) الدمع والسدم
هل عين قلبي (بفتح) تنجلي وبها اعود من (حجرات) الاثم للندم
وهل ارقي (بقاف) (الذاريات) الى (طور) التجلي و(نجم) العزم والهمم
واجتلى (قمر) (الرحمن) مذكراً حلول (واقعة) التعذيب بالنعم
(حديد) قلبي اقسته (مجادلتي) فهل (بحشري) اكفّى زلة القدم
جيوش (ممتحنات) الحر قد هجمت (صفا) علي فكانت شر مقتحم
لكن (بجمعة) حبي عني انهزم (المنافقون) الاولى ضلوا ببغيهم
يوم (التغابن) مدح المصطفى سندي اروم فيه (طلاقي) من عنا جرمي
(تحريم) جسمي على نار الجحيم به اذ مهجتي (ملكه) عدت من القدم
قد اعربت (نون) عن اخلاق حضرته وآخر (الحاقة) اسئلها عن الشيم
من ذي (المعارج) قد رام النجاة به (نوح) فانقذه في الفلك من عرم
و (الجن) آمن (بالمزمل) الحزم (المدثر) الحزر والمنجى من العدم
زين (القيامة) (انسان) العيون ومن تجري به (مرسلات) العلم كالديم
تغدو عداه كما قد جاء (بالنبا) العظيم في (نازعات) البؤس والنقم
اجعله يأخذ ايدينا اذا (عبس) الوجوه او شاهدوا (تكوير) شمسهم
منه (انفطار) قلوب (طففت) وبه بدا (انشقاق) سما التوحيد للامم
ذات (البروج) به قد شرفت وسمت اذ كان (طارقها) بالروح والحشم
سرى الى حضرة (الاعلى) (بغاشية) وعاد و (الفجر) لم يفلق ولم يشم
سناه في (بلد) البيت العتيق غدا (كالشمس)يزري ببدر (الليل)في العتم

آيات فرقانه مثل (الضحى) ظهرت   فيها (انشراح) لصدر الحاذق الفهم
(كالتين) (تعلق) بالاذواق مدحته   اقرأ فرائدها يا صاح واغتنم
(لقدره) (لم يكن) في الكون من شبه   كم (زلزلت) فيه دعوى مبطل خصم
(بالعاديات) تغشاهم و (قارعة)   دعت (تكاثرهم) في الحرب للعدم
في (عصر) مولده بيت الضلال خوى   والويل (اهمز) اهل (الفيل) في الحرم
مدت (قريش) به (ماعون) (كوثرها)   على الوجود فأروت منه كل ظمي
و (الكافرون) سقاهم كأس عادية   (بنصر) مولى شد البطش منتقم
(تبت) يداهم اذ (الاخلاص) فارقهم   لفالق (فلق) الاصباح من ظلم
عوذت نفسي برب (الناس) يوم غدا   مديح خير الورى ركني وملتزمي
عثمان[1] ناداك يا مختار خذ بيدي   يوم الجزا حين اخشى زلة القدم
ووالديّ واحبابي وجيرتنا   واسرة الدين من عرب ومن عجم
صلى عليك اله العرش ما طلعت   شمس وما فاهت المداح في كلم
والرسل والآل والاصحاب ما تليت   يا رب ادعوك بالمختار من قدم

ومن هذه الفنون الشعرية نظمه قصيدة في رثاء احد العلماء جعل الشطر الاول من ابياتها مكونا بمجموع حروفه تاريخ الوفاة بالسنة الميلادية والشطر الثاني من ابيات القصيدة مكونا تاريخ الوفاة بالسنة الهجرية ، وينطبق ذلك على جميع ابيات القصيدة مستمرا بها حتى نهايتها وقد ذكرنا مطلعها في فصل سابق .

وكذلك تشطيره قصيدة ابن المقري التي ابتكرها على اسلوب غريب بحيث تقرأ على عدد لا يحصى من الاوجه فتقرأ عجزاً وطرداً وتقرأ يميناً وشمالا ولا يدرك اهميتها الا ذوو الفصاحة . وقد ذكرها الخزرجي في

---

(١) اعتاد الملا عثمان ان يذكر اسمه في آخر القصائد الدينية التي ينظمها .

طبقاته فشطرها هذا الضرير الجبار لتكثير اوجهها[١] • وأول ابياتها :

ملك سما ذو كمال زانه كرم بحر جرى فيض كفيه على الامم
لما همى باياد جـودها ديم اغنى الورى من كريم الطبع والشيم

والتشطير بحد ذاته فن من فنون الشعر قل من يجيده وقد اشتهر الملا عثمان به ومن ذلك تشطيره بيتين للقاضي عياض[٢] كما يلي وهي ابيات جميلة :

ومما زادني شـرفا وتيهـا واسكرني ولـم احس الحميا
فدست على الاثير وما حـواه وكدت باخمصي اطأ الثـريا
دخولي تحت قولـك يا عبادي وتقريبي وان كنت القصـيا
وان سورت بالتوحيـد قلبي وان صيرت احمـد لي نبيـا

ومن فنون الشعر الاخرى التى برع بها هذا الشيخ تخميس القصائد وهي من الفنون الشعرية الجميلة التي يمارسها بكثرة ويجيدها الى حـد لا يكاد المرء يفرق بين الشطر الاصلي من البيت والشطر الجديد وذلك في التخميس كما هو في التشطير ولا يكاد يشعر في القصيدة الواحدة تباينا او نشازا مهما كانت صعبة في الاصل • وقد اجاد في تخميس بعض القصائد التي نظمها شعراء فطاحل مثل تخميس قصـيدة الشـاعر عبـدالباقي العمـري البائية[٣] التي يمتدح فيها آل بيت الرسول والتي مطلعها :

مذ شبَّ زند الفكر بعد أن خبا قمت لمـدح آل طـه معـربا
مسمطاً اوصافهـم فيما احتبى هذا الكتاب المنتـقى والمجتبى
في نعت آل البيت اصحاب العبا

---

(١) أعلام الادب والفن •
(٢) سعادة الدارين لعثمان الموصلي •
(٣) الابكار الحسان لعثمان الموصلي •

وكذلك تخميس قصيدة البوصيري اللامية المشهورة ومطلعها هو :

ذو العقل يشهد اذ يقيم دليلا　　كون الاله عن الحلول جليلا
ولشرعة تهدي الانام سبيلا　　جاء المسيح من الاله رسولا

فابى اقل العالمين عقولا

وقد ختم هذه القصيدة بالمقطع التالي وهو من نظمه مؤرخا به الانتهاء من تخميسها :

هذي بيوت كالبروج رسوخها　　بنعوت ختم الرسل كان شموخها
مذ طال بالوالي النصيح بذوخها　　بعناية الباري أتى تاريخها

قد تم تسميطي فعاد جميلا

ونذكر في ما يلي تخميسه لقصيدة الشيخ مصطفى البكري وهي قصيدة جميلة فيها نصائح وحكم كمثال من شعر التخميس عند الملا عثمان وقد جاء ذكرها في كتابه المسمى الابكار الحسان وهي :

غزالة الرحمة لا تطفل　　وبدرها الكامل لا يأفل
قلت وتفصيلي هو المجمل　　ما ارسل الرحمن او يرسل

من رحمة تصعد او تنزل

ولا بها الكوكب في فلكه　　دار وماج البحر في فلكه
ولا احتوى العقد على سلكه　　في ملكوت الله او ملكه

من كل ما يختص او يشمل

ولا بها سبّحه رعده　　ولا بها برق علا وقده
ولا بها ورد زها ورده　　الا وطه المصطفى عبده

نبيه مختاره المرسل

علتها اذ وردت نهلها　　منه وفيه جمعت شملها
فهو لها ان ارسلت رسلها　　واسطة فيها وأصل لها

يعلم هذا كل من يعقل

هو المنى فاخضع له والتج　　ونحو مرفوع ذراه عج
ان خفت كيد الزمن المزعج　　فلذ به في كل ما ترتجي

فهو شفيع دائما يقبل

والجأ له من حادث مدهش　　وادرأ به ليل الردى الاغطش
واستغرق الغدو به والعشي　　وعُذْ به من كل ما تختشي

فانه المرجع والموئل

ببابه قف واغتنم رفده　　منتهلا في مدحه ورده
واسلك على نهج الهدى رشده　　وحط احمال الرجا عنده

فانه المأمل والمعقل

سوابق الخطب متى سربت　　وأسْهُم الفاقة ان صوبت
فافزع له من كلها ان صبت　　ونـاده ان ازمة انشبت

اظفارها واستحكم المعضل

مُنْتهض الهمة في ندبه　　ومستفيض الجود من سيبه
يا من يقي المحزون من خطبه　　يا اكرم الخلق على ربه

وخير من فيهم غدا يسأل

يا من كسا الاعين في قرة　　وابدل الظلمة في غرة
يا دافع الكربة في نظرة　　قد مسّني الكرب وفي مرة

فرّجت كرباً بعضه يذهل

اقعـدني العجـز وضـعفي نمـا فالبس العـين ثيـاب العـمى
فلن ارى غيرك لي منعمـــا ولن تـرى اعجز مني فمـــا
لشدة اقـــوى ولا احمـــل

فلا تدعني ارجع القهقـــرى من جاهك العالي المنيع الذرى
ان لم اكن اهلا لحسن القـرى فبالذي خصك بين الـــورى
برتبة عنهـــا العلى ينـــزل

انعم بانقاذي من مهلكـــي اذ بسوى بابـــك لا اتـــكي
يا من حلا في مدحـه مسلكي عجل باذهاب الـذي اشـتكي
فان توقفـــت فمـــن اسأل

ســواد همي مفـــرقي بيضا وقـــد نضا عني ما قـد نضا
واخجلتي ان لم اكن منهضـــا فحيلتي ضاقت وصبري انقضى
ولست ادري ما الذي افعـــل

فوق السهى كم لك من موطيء في منتهى الامـــر وفي مبـدء
فهل سوى بابك من ملجـــأ وانــــت باب الله اي امـــرء
اتاه من غـــيرك لا يدخـــل

يا بحر جود ســـحبه سافحت وصحبه في عزمـــــه كافحت
ومنه ريح النصر قـــد نافحت صلى عليك الله ما صافحـــت
زهر الروابي نسمة شـــمأل

وما شـدا القمري وما رنمـــا حادٍ وفي ربـــع قـــبا زمزمـا
صلى عليك الله رب الســـما مسلما ما فـــاح عطـــر الحمى
وطاب منه الـــند والمندل

وما رياض المـــدح قد وردت فيك ومن ختـــم الثنا اوردت
وغلتي ذكـــراك ما بـــردت والآل والاصحاب ما غـــردت
ساجعة املودهـــا مخضـــل

والى جانب ما ذكرناه من فنون الشعر لابد ان نشير الى التضمينات المختلفة في القصائد باسماء الله الحسنى وباسماء الرسول وغير ذلك مما يجيده الملا عثمان اجادة تامة ويدخله في اشعاره وتخاميسه ٠

تأريخ الحوادث بالشعر :

ورغم ما ذكرناه من فنون الشعر فان الفن الاكثر صعوبة بينها والذي يجيده الملا عثمان ايضا ويمارسه اكثر من غيره هو فن التاريخ بالشعر اي وضع تاريخ لحادثة معينة ببيت من الشعر يقال في تلك المناسبة ٠ فيعرف تاريخ تلك الحادثة بذلك البيت المذكور ٠ فيقال ان الحادثة الفلانية مثلا تاريخها البيت الفلاني من الشعر (ويكون مفردا او ضمن قطعة شعرية او قصيدة) ٠

وفن التاريخ بالشعر قديم وقد كاد ينقرض في الوقت الحاضر لان شعراء العربية الآن قد اهملوه ولا يزاولونه لصعوبته وعدم حاجتهم اليه في حياتهم الحاضرة نظرا لضبط اخبار الوقائع والحوادث المختلفة بالصحف وبالاذاعات التي تقوم بنشرها وتدوينها وحفظها ٠ حتى ان قليلا من الشعراء الآن من يكاد يعرف هذا الفن او يتقن حسابه ولكنه على اية حال فهو فن جميل من فنون تراثنا الادبي ٠

ويكتب التاريخ هذا ضمن بيت من الشعر او جزء من البيت ينظم بحيث يكون مجموع ارقام حروفه يعادل تاريخ تلك السنة ٠ ومن المتعارف

عليه ان لكل حرف رقما معينا[1] حسب تسلسله الأبجدي وتكون مهمة الناظم ان يجد كلمة او اكثر ينطبق مجموع ارقام حروفهـا مع التاريخ المطلوب وان تكون تلك الكلمة او العبارة ذات معنى كامل يلائم معنى تلك المناسبة وتكون ذات وزن شعري فيمكن ادخالها ضمن بيت معين من الشعر • وقد يكمل البيت بابيات اخرى ليتم بها المعنى وتتراوح الابيات عادة بين الاثنين والسبعة وتؤرخ بها الحروب والوقائع والمناسبات الاجتماعية والابنية عند انشائها وغير ذلك •

وحتى في الزمن الماضي كان قليل من الشعراء من يزاول نظم التاريخ بصورة صحيحة على الرغم من كثرة الشعراء آنذاك • فكان الملا عثمـان بالنسبة لشعراء عصره علما فردا في كتابة التاريخ ولا يجد عناء في نظمه • ولا يستغرق ذلك منه اكثر من دقائق قليلة • وقد قال محمد بهجة الاثري في ذلك : (ولقد رأيته ـ اي الملا عثمان ـ يرتجل في المجالس الشـعر ولا سيما التواريخ ارتجالا فيأتي سهلا لا كلفة فيه ولا يكاد يخطىء في التاريخ) • وقال في ذلك ايضا عبداللطيف ثنيان (وكان في نظم التاريخ امة وحده فلا يعجزه التاريخ بل متى اخذ السبحة بيده فلا يمضي ربـع ساعة حتى يستخرج التاريخ نظما) •

والتواريخ التي نظمها الملا عثمان كثيرة يجدها المرء في كل مكان على

---

(١) أرقام الحروف هي كما يلي : أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ، ي = ١٠ ، ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠ ، ص = ٩٠ ، ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ، ذ = ٧٠٠ ، ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠ •

على ان تعتبر الالف المقصورة (ياءً) • ولا تحسب الحروف غير المـكتوبة مثل الالف في كلمة (ذلك) فيكون لـكل كلمة رقم معين متكوّن من مجموع حروفها فكلمة (بغداد) مثلاً مجموع حروفها ١٠١١ وهكذا •

ابواب المساجد والجوامع وعلى المراقد وشواهد القبور ، وعلى اجازات طلابه ، وفي ثنايا الكتب وغيرها حتى ليصعب على المرء استقصاءها وتتبعها •

ونذكر من الامثلة على نظمه التواريخ قوله في تاريخ تعيين الشيخ عثمان الديوهجي قاضيا لبغداد :

لما ارتقى قمة فصل القضا — يصون عنه الحكم قرآن
اشرف بالتعظيم تاريخه[1] — (وهاج شرع الدين عثمان)

ومما قاله من ابيات التاريخ ايضا هذان البيتان مؤرخا بهما كتاب سعادة الدارين الذي قام بطبعه عام ١٣١٨هـ :

لما بدا في الطرس بدر تمامها — واحس قارئها بدفع الرين
طبعت شموس حروفها فتأرخت — (جاءت بطبع سعادة الدارين)

ومنها ايضا التاريخ الذي نظمه مؤرخا به تعمير مسجد شمس الدين في الموصل وذلك عام ١٣٢٨هـ وقد نقش على باب المصلى في المسجد المذكور[2] وهو :

ولدي بفضل الله عمر تكية — دار السماح بها على التمكين
الفيض خيَّر بالهدى تاريخها — (باليمن فتح رباط شمس الدين)

ومنها ايضا قوله مؤرخا طبع كتاب الترياق الفاروقي عام ١٣١٦هـ • وهو :

---

(١) يحسب مجموع الحروف التي تشكل التاريخ المذكور ابتداءً من كلمة (تاريخه) وهكذا اصطلحوا على أن تحسب من بعد كلمة (تاريخ) أو ما يشتق منها مثل ارخ أو ارّخوا أو تاريخه ••• الخ
وهنا في هذا البيت مجموعها ١٣٤١ وهي السنة الهجرية التي ارتقى فيها الشيخ الديوهجي سدة قضاء بغداد • وقد جرت عادة الشعراء سابقاً ان تكون التواريخ بالسنة الهجرية في الابيات التي ينظمونها •

(٢) مجموع الكتابات المحررة في ابنية الموصل تأليف نيقولا السيوفي •

مُذْ بدا نور طبعه بحــروف باسمات كروضــة غنــاء
لعليل الفؤاد قد ارخــــوه (طبع ترياقنا كمال شــفاء)

هذا عدا ما جاء في تضاعيف الكتاب من تواريخ شعرية ذكرناها في مناسباتها دون الاشارة اليها • وهي امثلة عديدة على تأريخ الحوادث بالشعر عند الملا عثمان •

مؤلفات الملا عثمان :ـ

ان المرء ليعجب كيف ان الملا عثمان كان يستطيع التفرغ للتأليف والكتابة وانه كان يجد من الوقت ما يتسع لذلك ، وهو الذي عرف عنه بان كان مشغولا دائما ، اذ كان جم النشاط دائب الحركة حتى اثناء الشيخوخة من عمره وكان اثناء التأليف يملي ما يريد كتابته على اصدقائه وتلاميذه اثناء النهار ليدونوه له • ثم يعكف على جمع وتنقيح وترتيب ذلك ليهرع به الىالمطابع سواء في مصر او الشام او استانبول او بغداد لا فرق في ذلك فهو يعمل وينتج في كل بلد يحل فيه •

وكأنما اراد ان يخدم العلم والادب بكل طاقته ، بل اكثر من ان يكتفي بالتأليف وتقديم مؤلفاته الخاصة به ، اذ اخذ الى جانب ذلك يتتبع كتب غيره من الادباء والعلماء والمؤلفين ليعيد نشر هذه الكتب بعد ان اوشكت ان تندثر وليشرف على تنقيحها وطباعتها من اجل ان يطلع عليها مثقفو البلد وادباؤه ويساهم بذلك في الحركة الادبية والفكرية ، مما ستجد ذكره مدرجا في هذا البحث •

ومما يجدر ذكره ان الكتب التي قام بتأليفها لم يكن بينها كتاب واحد اختصه في موضوع معين بل هي مجموعة من الكتب ، الشعر فيها اكثر من النثر وتضم قصائد صوفية ودينية مختلفة • ومن اهم الكتب التي الفها كتاب

(الابكار الحسان في مدح سيد الاكوان) وهو يحتوي على قصائد مخمسة ومشطرة في مدح الرسول وآل بيته بشكل مجموعة لطيفة • وقد طبعت خمس مرات احداها طبعة بغداد عام **١٣٣٢**هـ •

وله ايضا كتاب (سعادة الدارين) وهو مجموعة قصائد جميلة مع مقدمات نثرية لها • اهمها المنظومة الموصلية مع مقدمتها • وقد طبع هذا الكتاب في مصر عام **١٣١٦**هـ • واعاد طبعه في استانبول عام **١٣١٨**هـ نظرا لنفاد الطبعة الاولى ومطالبة اصدقائه باعادة طبعه ثانية كما يقول في مقدمته • وقد وضع على غلاف الكتاب البيتين التاليين وهما من نظمه ايضا :

هذي سطور سعادة الـــدارين   كالشمس قد ظهرت لذي عينين
لقد استحقت ان يكون مدادهـا   ماء السويدا او سواد العـــين

ومن كتبه ايضا كتاب (المراثي الموصلية) وهو ديوان خاص بمرائي من حضر وفاتهم من علماء مصر عندما كان فيها ويحتوي عدة قصائد اكثرها من نظمه وقد طبعه في مصر •

وقد قام الملا عثمان الموصلي بنشر كتاب التوجـع الاكبـر بحـادثة الازهر • كما طبع ديوان الشاعر العراقي الشهر عبدالباقي العمري[1] عام **١٣١٦**هـ في مصر فحفظ لهذا الشاعر قصائده واشعاره التي كانت معرضة للضياع والتلف • وكان هذا الديوان وهو المسمى بالترياق الفاروقي ناقصا

---

(١) عبدالباقي بن سليمان العمري : الشاعر السياسي المشهور • ولد في الموصل من عائلة عريقة عام ١٢٠٤هـ (١٧٨٩م) • ومارس نظم الشعر منذ صغره • وقد تقلد المناصب الكبيرة في زمن الدولة العثمانية واصبح له مركز مرموق في ولايتي الموصل وبغداد • ورغم مشاغله السياسية لم يترك الاشتغال بالادب ونظم الشعر • وله ديوان شعر ومؤلفات نثرية وقد توفي في بغداد عام ١٢٧٨هـ (١٨٦١م) ـ الترياق الفاروقي للعمري والاعلام للزركلي وتاريخ الموصل للصائغ ـ

حسب النسخة الموجودة عند انجال الشاعر بعد وفاته فاكمل الملا عثمان هذا النقص بما يحفظه من قصائد للشاعر المذكور عن ظهر قلبه واضافها الى الديوان في الطبعة المذكورة مع تنقيح وترتيب الديوان وهو اكبر جهد قام به مدقق بالنسبة لهذا الضرير العاجز المتغلب على الشدائد بصبره وجلده . وقد صدر الديوان بمقدمة وبقصيدة من نظمه يمتدح فيها الشاعر وعائلته العمرية وكأنه اراد بذلك ان يحفظ لهذه العائلة حسن صنيعها له عندما تربى صغيرا في أحضانها .

كما انه قام بطبع كتاب الطراز المذهب في الادب وقد طبعه بمطبعة جريدة الفلاح بمصر . وكذلك كتاب الاجوبة العراقية عن الاسئلة الايرانية وقد طبعه في مطبعة مكتب الصنائع في استانبول سنة **١٣٠٧**هـ . وهذان الكتابان من تأليف الشيخ الامام ابي الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي . وقد ارخ بعض الادباء نشره لكتاب الاجوبة العراقية عند اعادة طبعه عام **١٣١٤**هـ بابيات منها :

لما بدا في الطرس بدر حروفه ... وكساه عثمان الذكا طبع الهبة

حسنت مواقعه فقلت مؤرخا ... (عثمان اجمل طبع تلك الاجوبة)[١]

ونشر ايضا كتاب خواتم الحكم المسمى (حل الرموز وكشف الكنوز) للاستاذ الشيخ علي دده وهو كتاب ضخم طبعه في المطبعة الشرقية في القاهرة عام **١٣١٤**هـ . وقد ارخ ذلك الشيخ يوسف صالح محمد الجزماوي بأبيات آخرها :

مذ تبدت حروفه كاللآلي ... وغدت للقراء تهدي الغنائم

سرّ كلا منهم فانشد وأرّخ ... (زاد وجدي بحسن طبع الخواتم)

هذا بالاضافة الى ما نشره من قصائد واشعار متفرقة لم يتهيأ لها ان

---

(١) مجلة الجزيرة الموصلية ١٩٤٧ .

تجمع في كتاب • وقد قيل بان له مؤلفات اخرى استأثر بها بعض ذوي النفوذ آنذاك • ولم يتأكد لنا ذلك غير انه قد يكون هذا صحيحا لا سيما واننا لاحظنا انه جاء في كتاب اعلام الادب والفن وهو احد المصادر المهمة عن الملا عثمان الموصلي أن من مؤلفاته ايضا كتابا اسمه (نباتي) ولم نسمع عن وجود مثل هذا الكتاب له ولم يشر اليه احد غير هذا المصدر •

وجاء في كتاب (ايضاح المكنون)[1] ان من مؤلفات الملا عثمان ايضا كتاب اسمه (بديع النظام على سجع الحمام) ولم يتطرق الى ذكر هذا الكتاب احد غير هذا المصدر ويمكن ان يكون مخطوطا ولم يطبع حتى الآن ولم يطلع عليه أحد غير القليل من الناس •

---

(١) ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لاسماعيل باشا ابن محمد أمين •

صفحة ناصعة

الناحية السياسية والوطنية عند الملا عثمان • الصحافة في حياة هذا الرجل • كرمه وسماحة يده واخلاقه وصفاته •

عرف هذا الرجل بعدة مواهب ومآثر ظهرت لديه كجوانب مضيئة في تاريخ حياته وتوضحت للناس كمزايا أصيلة تدل على طيب محتده وتشير الى روحه الوطنية المتوثبة وشعوره بالمسؤولية كمواطن عربي مسلم في هذا الوطن الكبير •

فمن الناحية السياسية لم يتقاعس الملا عثمان عن المشاركة مع ابناء قومه في واقعهم والمضي مع النخبة الصالحة منهم في الكفاح من أجل وطنهم وعروبتهم رغم انه لم يكن للمواطن العربي آنذاك خط ثابت في الوطنية والسياسة يوصله الى الهدف القومي المنشود • اذ أن القومية العربية لم تكن واضحة المعالم بالشكل الذي هي عليه الآن • ولم تكن فكرتها متبلورة يكاد يلمسها كل مواطن مخلص لوطنه ، بل ان الوطنية آنئذٍ كانت متعددة الاتجاهات فمنهم من يتجه اليها عن طريق الخلافة الاسلامية ويعمل على دعمها وتأييدها كمثال للوحدة الوطنية تجاه الدول الاوربية ، ومنهم من

يقصدها عن طريق تكتل عربي ضمن الخلافة العثمانية ، ومنهم من يحبذ الانفصال كلياً عن جسم الدولة العثمانية ولكن ليس بشكل معين من اشكال الوحدة العربية لتجتمع عليه كلمة العرب جميعاً آنذاك لاسيما وان فكرة الملكية كانت رائجة ولها انصارها وان ادخال الدول العربية في افريقيا ضمن هذه الوحدة لم يتفق عليه بعد . كما ان من الناس من يرى ضرورة التعاون مع الانكليز للتخلص من النير العثماني في الوقت الذي يرى فيه غيرهم ان هذا التعاون هو كفر وضلال لا يجوز الاقدام عليه . وهكذا كان الشباب العربي في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين يتخبط باتجاهاته الفكرية والسياسية نظراً لاضطراب الاوضاع العامة ونقص التوجيه السياسي والعقائدي .

وفي وسط هذه التيارات كان الملا عثمان يعيش ويمارس السياسة حسب رأيه واجتهاده فمن ذلك ما حدث مرة عندما أخذ يغمز من طرف خفي بالخلافة العثمانية ويدعو في حفل كبير لملك العجم متجاهلاً الخليفة العثماني في الوقت الذي كان يتمتع فيه بالتبعية العثمانية . وكان بين الدولة العثمانية ودولة العجم خلافات سياسية ومذهبية وكانت قطيعة بينهما فلما بلغ خبر ذلك للسلطات العثمانية أثار سخطها فنفاه والي بغداد المدعو تقي الدين باشا الى سيواس في الانضول[1] وكان ذلك عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) ولم يطل نفيه هناك فقد عفى عنه وسافر من سيواس الى استانبول .

هذا بينما من جهة أخرى يوفده الخليفة العثماني الى طرابلس الغرب لاستمالة امامها السنوسي ولمعرفة مدى استعداده للتعاون مع الخلافة العثمانية . فيقوم باداء المهمة كمندوب سياسي للخليفة نفسه وتلك منزلة لا ينالها الا ذو حظ عظيم .

---

(١) مجلة اليقين ج ١٦ عام ١٩٢٣ .

ومثل ذلك ما يدل على عطف الملا عثمان على الدولة العثمانية وتعاونه معها هذا الخبر الذي رواه الاستاذ محمد بهجة الأثري وهو ان أحد الفضلاء اخبره انه رأى في رحلة لكاتب تركي ان الملا عثمان كان يخطب في مكة ويدعو الحجاج الى الانقياد للعثمانيين وشد ازر الخلافة العثمانية ثم يعقب على ذلك بقوله : فسألته عن اسم الرحلة وصاحبها لا تحقق جلية الامر فلم يكد يتذكر . فاذا صح هذا فذهابه الى الحجاز كان سياسياً بايعاز من الحكومة العثمانية[1] .

وكان الولاء للحكومة العثمانية آنذاك يعتبر من مظاهر التدين ويعد تعلقاً بالخلافة التي هي رمز الوحدة الاسلامية ، ومن ثم اتصالاً بالماضي البعيد الذي يتمثل بقيام دولة اسلامية كبرى يتحقق على يديها الهدف الاسمى وهو الفتح الاسلامي شرقاً وغرباً تحت ظل راية القرآن فهو ولاء مقدس له صلة بالدين الحنيف .

غير انه لما انتشرت الفوضى في الايام الاخيرة من حكم العثمانيين وظهر للناس جورهم وظلمهم على الشعوب الخاضعة تحت حكمهم تغير الوضع واتجه تفكير كثير من الشباب العربي اتجاهاً آخر وهو التخلص من الحكم العثماني بأي شكل كان حتى لو كان ذلك على يد الانكليز .

وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى باندحار الدولة العثمانية وتوزعت أملاكها وأراضيها بين الدول الكبرى ووجد العرب انفسهم تحت حكم استعماري آخر ، عقدوا العزم على محاربة الانكليز للتحرر من سيطرتهم ورأوا انه من الافضل الاعتماد على انفسهم فقط كقوم تربطهم رابطة اللغة

---

(١) يذكر السائح والصحفي التركي التتري الشهير عبدالرشيد ابراهيم الذي كان يدعو للجامعة الاسلامية والذي كان يؤدي فريضة الحج عام ١٣٢٧هـ في كتابه (عالم اسلام) بانه رأى الملا عثمان في موسم الحج يخطب في الناس داعياً للخلافة العثمانية .

والشعور والتاريخ فكانت محاربة الانكليز والفرنسيين عقيدة ذلك الجيل للوصول الى تحرير الامة العربية ووحدتها • وهكذا اندفع الشباب العربي هذه المرة ليحاربو الانكليز في العراق بثورتهم المشهورة بثورة العشرين التي قامت عام ١٩٢٠ ، ويحاربوا الفرنسيين في سوريا في الوقت نفسه • وكانت ثورة العشرين من الثورات القومية الرائعة في العراق وقد ساهم فيها الملا عثمان كما سنرى في بحث آخر مساهمة فعالة تعبر عن اصالة في التفكير وتوغل في الوطنية •

وعلى ذكر موضوع السياسة في حياة الملا عثمان لنتطرق الى موضوع آخر له صلة بالسياسة من قريب او بعيد وهو الصحافة في حياة هذا الرجل•

وعندما نقول بان الملا عثمان كان صحافياً لفترة من االزمن أو أنه مارس الصحافة واشتغل بها فاننا بذلك نذكر حقيقة واقعة لا تخلو من الطرافة في الوقت نفسه • اذ أن هذا الشيخ الضرير صار صحافياً واصدر مجلة باسمه تدعى مجلة (المعارف) ولكن اين ؟؟ في مصر التي كانت الصحافة فيها أرقى مما في أي دولة عربية أخرى فكأنما أراد ان يغزو الصحافة في عقر دارها !! وكان ذلك خلال المدة التي قضاها في مصر بين عامي ١٣١٣ - ١٣١٨هـ وتقارب الخمس سنوات • وقد يدعو ذلك الى العجب والتقدير نظراً لسعة الاطلاع عند هذا الشيخ ونضوجه الفكري اذ لم يكن جامداً في تفكيره منعزلاً في تصوفه اورجعياً في معتقده •

وقد جاء ذكر هذه المجلة بشكل خبر نشرته مجلة البيان للشيخ ابراهيم اليازجي تحت عنوان (مجلة المعارف) جاء فيه : (ورد علينا العدد الاول من مجلة معنونة بهذا الاسم لصاحبها ومحررها الفاضل منلا عثمان أفندي الموصلي وهي علمية سياسية تاريخية أدبية اخبارية • وفيما نعهده من حضرة محررها المشار اليه من غزارة الادب والبراعة في صناعة الانشاء ما يضمن لها التقدم بين الصحف العربية) •

غير ان مجلة علمية سياسية مثل هذه ، وفي ظروف سياسية عقائدية مضطربة مثل تلك ، لا يتوقع لها الاستمرار والمضي بل انها كانت تلقى الكثير من العراقيل والمصاعب وهذا ما حدث فعلاً حيث لم تطل حياتها الا فترة ليست بالطويلة ثم توقفت عن الصدور لاسيما بعد ان وجد صاحبها الشيخ ان اهدافها لم تعد تتفق مع رغبة السلطات الحاكمة آنذاك ٠

وقد عرف الملا عثمان بنزعته الانسانية الخيرة وعدم موالاته للباطل كما انه عرف بطيب الاخلاق وسماحة اليد وكرم النفس فقد اجمع الكتاب والباحثون على ذلك ووصفوه بانه كان سخياً لا يدخل الدرهم يده الا ماراً بها ٠ ولو جمع ما حصله في استانبول لبلغ الالوف من الذهب ومع ذلك فقد مات فقيراً لم يترك لاولاده الا شيئاً زهيداً حتى لم يكن لهم وسيلة للرزق غير دكان صغيرة لبيع العباءات كما هو معروف[1] ٠

ويقال انه كان له صديق في استانبول يدعى الملا يونس فكان الشيخ عثمان يعطف عليه ويعطيه مما يحصل عليه من المال ٠ حتى ان احد الفضلاء كان يقول : اللهم يسّر لي من يكون لي مثل عثمان ليونس !!

وكان الى جانب ذلك طيب السريرة كثير الوفاء عزيز النفس ، صادقاً في لهجته ، غيوراً على مصالح امته ٠ كما انه كان حلو الحديث ، لَسِناً فصيحاً لا يمله الجليس ، طيب العشرة حاضر النكتة الا انه في الوقت نفسه كان حاد الطبع مع شراسة قد تعتريه احياناً ٠

ومن أجل ان نكمل الصورة التي رسمناها عنه نزيد على ذلك فنذكر بعضاً من اوصافه مما علمناه عنه من المصادر المختلفه ومما رواه المعمرون الذين رأوه وذلك لزيادة تعريفه للقراء حيث يذكر عنه بانه كان قوي البنية

---

(١) كان ابنه الحاج احمد اثناء كارثة المجاعة في الموصل عام ١٩١٧ ــ ١٩١٨م يعيش على بيع اللبن في سوق الموصل ثم اضطر الى السفر الى بغداد بعد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٨م ٠

كبير الجسم ممتلئه ربع القامة اسمر اللون اشقر الشعر مدور الوجه على وجهه ندبات قليلة خفيفة هي آثار الجدري الذي كان قد أصيب به وهو طفل وانتهى به الى فقد بصره .

وكان جهير الصوت بطيء السير وقوراً في مشيته ، يرى في الاسواق والطرقات معتماً بعمامة بيضاء بادئ الامر عندما كان شاباً ، ثم بزي المولوية بعد ذلك ، ثم بالكشيدة آخر عمره . وكان يقوده أحد تلاميذه غالباً أو أحد الناس من اصدقائه أو عارفيه .

ومن صفاته أيضاً فرط الحس الذي يتصف به العميان عامة وهو تنبه الاعمى الى كل حركة أو بادرة تحدث حوله مع تيقظ المشاعر تجاه ذلك . ويوضح لنا هذا الشيىء القصة التي تروى عن ابي دهمان الغلال والتي وقعت له مع بشار بن برد . قال أبو دهمان : مررت ببشار الشاعر الاعمى يوماً وهو جالس على باب داره وحده وليس معه أحد وكان بيده عصا يلعب بها ، وامامه طبق فيه تفاح واترج ، فلما رأيته وليس عنده أحد تاقت نفسي الى ان اسرق ما بين يديه فجئت قليلاً قليلاً حتى مددت يدي لاتناول ذلك من أمامه فرفع العصا وضرب بها على يدي ضربة كاد يكسرها فقلت له قطع الله يدك هل انت أعمى الآن ؟ فقال : يا أحمق فأين الحس ؟[1] .

ولعل احسن تفسير لذلك هو ما جاء في الخبر التالي الذي يروى عن بشار بن برد أيضاً بعد ان انشد بيته المشهور الذي يمتاز بدقة الوصف وهو :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فقد قيل له بانه ما قال أحد احسن من هذا التشبيه فمن اين لك هذا وانت لم تر الدنيا قط ولا رأيت شيئاً فيها ؟ فقال : ان عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الاشياء فيتوفر حسه وتذكو

---

(١) الاغاني ج ٣ للاصفهاني .

قريحته[1] ثم انشدهم قوله :

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافداً بقلب اذا ما ضيع الناس حصلا

وهكذا كان الملا عثمان قمة في الذكاء وفرط الحس ومن أجل ذلك كان شاعراً مبدعاً وفناناً موهوباً وذواقاً للادب الى جانب ما اشتهر به من وطنية صادقة واخلاق وصبر على الشدائد ومواهب لا يضارعه فيها الا قليل من رجالات التاريخ •

(١) الاغاني ج ٣ للاصفهاني •

النكتة في حياة الشيخ

اشتهر الملا عثمان بحب النكتة • ميله الى الدعابة مع الناس • نماذج من نكاته ونوادره الشائعة •

من النـاس من ينطوي على حـب النـكتة فتظهر بريئة في حـر كاته وسكناته ، معبرةً عن صفاء النفس وجمال الحس وطهارة القلب عنده • وتكون النكتة مؤثرة كلما كان صاحبها عالي الهمة كبير المـكانة قد اخذت بتلابيبه مشاغل الحياة لانها تكون عندئذ لاذعة ومنتزعة من الصميم وغـير متوقعة أي متسمة بالمفاجأة وهي العنصر المهم في موضوع النكتة •

ومن هؤلاء الناس الملا عثمان فعلى الرغم من البيئة القاسية التي نشأ فيها والظروف التي احاطت به كقاريء للقرآن والموالد النبوية ، وعلى الرغم من انشغاله في تحصيل العلم أو التدريس أو التأليف فانه يجد المتسع من وقته للتنكيت والضحك حتى قيل انه يضحك الثكلى لمـا يأتيه من نكات لطيفة •

والمعروف عن الملا عثمان انه كان كثير الهزل في مواضع الهزل ، كثير العبث مع اصدقائه عندما يجد الفرصة الملائمة لذلك • كأن يكون خارجـاً

من احدى الحفلات ومعه جماعة مقربون اليه فيحلو له عندئذ المزح معهم كما فعل مرة عندما كان خارجاً بعد منتصف الليل من حفلة وكان معه بعض اصدقائــه وكانت الطرق مظلمة اذ لم تكن الاضاءة الكهربائية مستعملة آنذاك وكانت المدينة ساكنة نائمة • وفي احدى منعطفات الطريق وقف فجأة وهو يقول لاصدقائه : لنتسابق ركضاً في هذا الطريق ومن يسبق الآخرين فله هذه الصرة • ثم حرك صرة النقود التي بيده وهي التي نفحه اياها صاحب الحفلة عند مغادرته الدار ليسمعهم رنين ليراتها الذهبية • ولم يكد يسمع موافقتهم على اقتراحه مستصغرين شأنه في الركض والتسابق الا وشمر عن ذراعيه ورفع رداءه فقبض باسنانه على طرف منه حتى لا يعيقه عن الحركة وانطلق يركض بينهم وهم يركضون وراءه ولا يستطيعون اللحاق به فقد كان يعرف الطريق شبراً شبراً فهو لم يعتمد على بصره وتركهم يتخبطون في الظلام الدامس ويرتطمون ببعضهم وبجدران الطريق ويتعثرون في حفره وقد لحق الاذى ببعضهم لعدم استطاعتهم الرؤية في الظلام وبقوا متأسفين على ضياع فرصة الحصول على صرة النقود بعد هذا التعب والعناء •

واغلب ما يعرف من نكاته ما يستند على مداعبة الناس أو على حسن التخلص أو احراج الشخص المقابل • اما النوادر التي اساسها الذكاء أو ارهاف الحس فهي كثيرة وشائعة في الموصل حتى يكاد يختلط الصحيح منها بالمختلق الذي لا أساس له • فيعجز عن التفريق بينهما وتكاد تشوهها المبالغة جميعاً فلا نستطيع ان نأخذ الا ببعضها مما نجد من يرويه من الثقاة أو مـا نستطيع اسناده الى من كان باتصال مع الملا عثمان ونضطر الى ترك الباقي وهو الاكثر •

وكما ان الناس اعتادوا ان يرجعوا النكات التي تتصف بالحيلة الى ابي نواس فيروونها عنه كأنها حقائق لا يتطرق اليها الشك ، أو ان يرجعوا جميع ما يعرفوه من نوادر الطمع الى اشعب فكذلك اعتاد الناس في الموصل ان

يرجعوا جميع النوادر التي تتصف بشدة الذكاء أو ارهاف الحس الى الملا عثمان فلا عجب ان تجلس في أحد المقاهي في الموصل مع بعض المتقدمين في العمر فيأخذ أحدهم بطرف الحديث ليروي نكته عن الملا عثمان قائلاً : (كان الملا عثمان مرة ...) تماماً كما يقال : (كان أبو نواس ...) وهذا لكثرة ما عرف عن الملا عثمان من حضور البديهة وحدة الذكاء وحب النكتة .

ومن اشهر النوادر التي رويت عنه تلك التي وقعت له في حفلة في قصر السلطان عبدالحميد وهي نكتة شائعة في الموصل ويرويها الناس نقلاً عن بعضهم يتمثل فيها حسن التخلص الذي عرف به الملا عثمان . وهي ان الخليفة العثماني عبدالحميد سمع مرة ان الملا عثمان هو خير من يقيم حفلة للتواشيح الدينية في البلاد الاسلامية كلها فاصدر أمره بان يقيم له حفلة من هذا النوع في قصره وسمح له ان يقرأها بلهجته الموصلية الخاصة فاحس الملا عثمان بانه وقع في ورطة واراد ان يتخلص منها بحجة انه لا يوجد في استانبول من يتقن الموشحات الموصلية ليشترك معه في تلاوتها اذ لابد له من بطانة تردد معه هذه الالحان . ولكنه لم تسمع له حجته وامره الباب العالي ان يدبر أمره في أقرب وقت لاقامة الحفلة . فنزل الشيخ عثمان الى اسواق استانبول وقد ركبه الهم والحزن خشية الفشل واخذ يفتش عمّن يستطيع ان يعاونه في اقامة الحفلة ويشترك معه في ترديد الموشحات ولم يلبث ان التقى بجماعة من اهالي الموصل قدموا الى استانبول لامر ما فقال في نفسه وجدت ضالتي واخذ يبين لهم جلية الامر وخطورته ويتفق معهم على الموضوع .

وبدأ القصر السلطاني يستعد لاقامة الحفلة وظهرت الزينات في حدائق القصر وتجلت الفخامة فيه وجاء المدعوون واحتل الملا عثمان وبطانته اماكنهم حيث بدأوا بالقراءة وترديد الانغام وطرب الناس كثيراً وانشرحت

اساريرهم وانتبه الملا عثمان الى ان جماعته لا يحفظون من القصائد شيئاً ولم يستطيعوا ترديد المقاطع لجهلهم لها واحس بالاحراج امام الناس وسرعان ما تفتقت الحيلة له فمال الى جماعته واشار عليهم بشيء ففهموا قصده ثم انطلق يقرأ :

ام الحنينة لا تنطحينا
جبنا النخالة نصها طحينا

وهي انشودة هزلية موصلية يقرؤونها للبقرة عندما يريدون حلبها لترضخ أمامهم ولا تستعصي . وطفق المنشدون يرددونها معه فقد كانوا يعرفونها جيداً كما يعرفها كل موصلي . واستبدّ الحماس بقارعي الدفوف وهم يظنون انها انشودة حماسية فاشتدوا بالضرب ، وسرّ السلطان والحاضرون من هذه الحفلة وهم لم يفهموا لها معنى . وليت احداً منا كان حاضراً آنذاك ليسمع تلك الضجّة وقرع الدفوف على شواطىء البسفور وهي تنبعث من قصر الخليفة أمير المؤمنين وسلطان البرين والبحرين لتردد (أم الحنينة لا تنطحينا) تعقبها أصوات الاستحسان باللغة التركية ، ثم بعد ذلك تعطى هبات السلطان للمنشدين اعجاباً بروعة الحفلة وقدسيتها !!

ومن نكاته الاخرى ما وقع له في احدى الليالي اذ كان معه بعض اصحابه في دار احد الوجهاء . وكان هناك احد المولوية وهو يقرأ ويمد رأسه تارة ، ويتمايل يميناً ويساراً تارة أخرى وظل يقرأ ولم يسكت فضجر منه الشيخ عثمان وصاح بأحد الحاضرين قائلاً (هات لي دنبك) ـ وهو طبلة طويلة يقرع عليها ـ فاتوه به وهم يظنون انه يريد الضرب عليه ولكنه خرق جلدته بضربة قوية ثم وضعه على رأسه كقلنسوة المولوية[1] واخذ

---

(١) كان الملا عثمان يلبس مثل هذه القلنسوة وهي طربوش طويل اسمر وذلك بعد التحاقه بالطريقة المولوية . ولكنه ترك لبسها قبيل وفاته عندما تقدمت به الشيخوخة مما يدل على ان هذه النكتة حدثت في السنوات الاخيرة

يقرأ مقلداً ذلك الرجل أعظم تقليد ماداً عنقه متمايلاً يميناً ويساراً فلم يدع أحداً من الحاضرين الا ويضج بالضحك الشديد .

ووجه النكتة هنا تقليده هذا الرجل بصورة صحيحة من دون ان يراه بنظره أو يرى قلنسوته ولكنه توقع ان يكون كذلك وان يكون لباسه وحركاته بتلك الصورة التي قلده بها .

ويروى انه كان مرة يقرأ في جامع الرابعية في الموصل على القراءات السبع قبل الصلاة وكانت القراءات السبع غير معروفة كثيراً لدى عامة الناس. فأخذ يعيد قراءة الكلمات على لهجات متعددة مما جعل الناس يظنون انه قد اخطأ في قراءته فانبرى أحد المستمعين بصوت مرتفع يصلح له قراءة الكلمة (على زعمه) ، فلم يلتفت اليه الملا عثمان . فاعاد الرجل (تصليح) الكلمة ثانية بصوت أعلى من السابق . عندئذ لم يسع الشيخ عثمان السكوت فالتفت اليه وهو يقول له بلهجة لطيفة ناعمة (كلْ تبن أُرجوك) وعندئذ انفجر المصلون بالضحك على هذا التأنيب اذ جعله حيواناً يأكل التبن لجهله معنى القراءات السبع .

ونكته أخرى تروى عنه عندما كان يسير في أحد ازقة بغداد في احدى الليالي . وكانت المدينة خالية من المارة في تلك الساعة المتأخرة من الليل . وما ان مشى مسافة في ذلك الطريق الا واعترضته كلاب كثيرة تنبح عليه وتمنعه من السير فحاول ان يبعدها عنه بعصاه فلم يتمكن فقد تكاثرت عليه وشكلت حوله حلقة محيطة به وهي تنبح بوجهه بصوت واحد مرتفع . واراد ان يفك هذا الحصار من حوله فلم تفده محاولته شيئاً وارتبك لذلك وانزعج كثيراً لاسيما عندما لم يجد أحداً يمر في الطريق لينقذه من هذا

من عمره لانه لو كان لا يزال يلبسها لما طلب الدنبك ليجعل منه ما يشبه القلنسوة فوق رأسه . وانه لا يرى حرجاً من التنكيت حتى في أيام شيخوخته عندما أصبح طاعناً في السن قريباً من هاوية قبره .

المأزق • وكانت الكلاب لا تزال تعوي وتنبح بصوت واحد مرتفع وهي بشكل حلقة محكمة حوله • فبقي برهة وهو ساكت يصغي الى اصواتها ، وعندئذ حضرته النكتة فلم يكن منه الا ويلقي عصاه بجانبه ثم يجلس على الارض متربعاً ويشرع في قراءة مقام من نغم معين يناسب ذلك الموقف فتصغي اليه الكلاب ويهدأ نباحها ، ويسترسل هو في غنائه وانشاده ثم يسكت محاولاً النهوض فتشرع هي الاخرى بالنباح المستمر المرتفع • وعندئذ ينطلق ثانية في غنائه ومقاماته فتصغي اليه وهي تهمهم وتزمجر وهكذا الى ان ادركه بعض المارة وبعض ساكني البيوت المجاورة من الذين سمعوا تلك الضوضاء فوجدوا هذا المنظر المضحك حيث جلس الملا عثمان بهيئته الكاملة وقلنسوته الطويلة في وسط حلقة من الكلاب وهو يقرأ لها ويغني وعندما يسكت ترد عليه بصوت واحد كأنها فرقة كاملة من الاصوات المتشابهة • فادركوه عندئذ وطردوا الكلاب من حوله واخذوا بيده ليوصلوه الى المحل الذي يقصده •

ومن النكات الادبية التي تنطوي على ذكاء وفيها استشهاد بآيات القرآن ما حدث اثناء منح العالمين الشقيقين محمد رشيد الخطيب واخيه سعدالدين الخطيب اجازتهما العلمية في حفلة أقامها لهما استاذهما المرحوم الشيخ محمد الرضواني عام ١٣٣١هـ داعياً اليها جمعاً كبيراً من العلماء وافاضل القوم • وكان قاريء الحفل هو الشيخ الملا عثمان الذي لم يشأ ان تفوته النكتة الادبية عندما لاحظ ان والد هذين العالمين هو المرحوم صالح الخطيب الذي كان عالماً فاضلاً تخرج عليه الشيخ محمد الرضواني استاذ ولديه المذكورين • وعندئذ افتتح الملا عثمان الاحتفال بتلاوة من القرآن الكريم مبتدءاً بالآية التالية : (واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحاً فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما) • وقد انتبه الحاضرون الى انطباق الآية الكريمة على المناسبة التي تليت فيها :

فان هذين العالمين كانا يتيمين مات ابوهما صالح وهما صغيران فلما بلغا اشدهما هيأ الله لهما الشيخ الرضواني الذي كان قد تلقى العلم على والدهما واخذ الاجازة العلمية عنه فكان يحفظ لهما هذا الكنز (اي العلم والاجازة) ليرده اليهما عن طريق تدريسهما ومنحهما الاجازة العلمية في هذا الاحتفال . وهذا من أجمل المفارقات الادبية مما يستشهد به على ذكاء الملا عثمان وحضور بديهته[1] .

ومن النكات التي تروى عن شذوذ العبقرية عنده ويمكن تفسيرها بالتصرف غير الطبيعي عند الاذكياء والنوابغ من الناس تلك الحادثة التي وقعت على زمن أحد ولاة الموصل حيث أقام ذلك الوالي حفلة لتلاوة المنقبة النبوية في احدى الليالي . وقد اوعز للملا عثمان باحيائها فوعد بالاستجابة وعد المطيع الممتن . وعندما انتظم عقد الناس من وجوه البلدة وكبار موظفي حكومتها توجهت الانظار الى فرقة الانشاد فكانت مكتملة ما عدا رئيسها الملا عثمان الذي لم يحضر بعد . ومضت ساعة والوالي صاحب الدعوة بالانتظار يتطلع الى الباب وقد احس بانه احرج بسبب ذلك التأخر . ثم لم يكن منه الا وارسل الحراس والجند للتحري عن الملا عثمان في جميع اطراف البلدة . وتأزم الموقف واضطرب انتظام الحفل حتى اذا استيأس الوالي ومدعووه أو كادوا انقذت الموقف مصادفة اتفقت لرجل من الجند اذ مر بطاحونة فاذا بالملا عثمان جالس على الارض عند رأس الطحان الذي كان اسمه حسين المدارجي وهو ينشد له الاشعار والمقامات وحسين هذا في اعياء يعتذر عن السماع ويرجوه ان يخلي بينه وبين النوم ذلك ادنى لراحته ولكنه ظل يلح في عرضه وحسين يعتذر وعندئذ ادركه الجنود وهو على حاله هذا . فلما قالوا له ويحك انسيت موعدك في دار الوالي لاحياء الحفلة ؟

---

(١) تاريخ علماء الموصل .

فاجأهم بضحكة مدوية قائلاً : ولماذا تستكثرون علي ان أكون في خدمة اخي حسين المدارجي فانا لا أريد ان اتركه قبل ان اقرأ له مقام المنصوري • ولكن الجنود لم يمهلوه فاخذوه طوعاً أو كرهاً الى دار الوالي • وعندما أطلع هذا على سبب التأخير لم يكن منه الا ان حمل ذلك على شذوذ عبقريته • وابتدأ الحفل بانشاد من الملا عثمان طرب له الجميع ونسوا الضجر الذي ركبهم بسبب تأخيره •

وهكذا كان الملا عثمان رحمه الله نسيجاً وحده وكان طرزاً عجيباً بين الرجال فهو يجمع المواهب على اختلافها والغرائب من الطباع بشكل ينسجم مع بعضه لترتسم منه صورة كاملة لهذا الرجل الذي بقي ذكره خالداً على مر الايام •

الملا عثمان والناس

علاقة الملا عثمان مع الناس على اختلاف طبقاتهم . صلته الوثيقة بكبار العلماء والادباء . بعض من ذكريات الناس عنه .

لقد توثقت علاقة الملا عثمان بالناس بشكل غريب وربطته واياهم روابط شتى . ولقد كان ذلك مع جميع الناس على اختلافهم وتنوع مشاربهم وميولهم وباختلاف أماكن الالتقاء التي كانت تجمعهم ، سواء كان ذلك في الجامع أو التكية أو مجالس الطرب أو بيوت وجهاء القوم . وكانت العلاقة هذه من الامراء وحكام الاقاليم وبقية الناس ومنهم الشاعر والاديب والمتصوف والموسيقار والمغني وصاحب المطبعة ، ومع العالم الذي يقصده ليدرس عليه ومع المتعلم الذي يلقي عليه درساً في القرآن أو الموسيقى أو الموشحات أو الادب . فقد كان كثير الاختلاط بهم يتفقدهم عند غيابهم ويسأل عن حالهم ويعود مريضهم ويعطف على فقيرهم وضعيفهم ويلاطفهم ويمازحهم كما لو كان يعرفهم منذ أمد بعيد فقد عرف عنه انه سريع التعرف على الناس وسرعان ما يصبح وطيد الصداقة معهم .

وكان اذا سافر الى بلد سأل عن وجوهه وادبائه وشعرائه ليتعرف

عليهم • وفي استانبول كان قريباً من رجال البلاط ومن الخليفة العثماني نفسه السلطان عبدالحميد الثاني ومن بعده السلطان محمد رشاد الذي تولى الخلافة عام ١٩٠٩م • ويدخل بلاطه معززاً مكرماً وهذا شأنه في كل بلد يحل فيه • وعندما كان في دمشق اشتهر أمره بالموسيقى فقصده كثير من أعيان المدينة وبينهم رجال الاكليروس المسيحي للاستماع اليه فاعجبوا به وكان يعزف الحاناً يونانية تشبه الالحان التي تعزف في كنائسهم فتوثقت علاقتهم به واظهروا له كل حب وتقدير •

وكان هذا الشيخ مدرسة لوحده فله من الطلاب في كل فن وعلم مالم يجتمع لغيره من الناس الا قليلاً • وكانت تشد اليه الرحال للدراسة عليه فاستطاع ان يخلد ذكره بتخريج عدد من نوابغ تلاميذه في فنون مختلفة وعلوم شتى •

وكان الذين درسوا عليه فنون الموسيقى والأنغام واصولها كثيرين غير ان اسطع نجم بينهم هو النابغة المصري الموسيقار سيد درويش ويليه عدد من كبار الفنانين في مصر والعراق وتركيا من الذين ساهموا في رفع شأن الموسيقى في الشرق وانتهى اليهم الغناء والطرب في وقتهم •

واما بالموشحات والموالد فاكثرهم شهرة القاريء البغدادي الحافظ مهدي ثم جمهرة كبيرة من كبار المنشدين في الموصل وبغداد ومصر وغيرها•

واما بقراءة القرآن الكريم وتجويده فان المع طلابه وابرزهم هو شيخ قراء الموصل في الوقت الحاضر الاستاذ محمد صالح الجوادي فهو من أشهر مدرسي القرآن الكريم في هذا الجيل في العراق كله نال ذلك عن جدارة تامة • وقد تخرج على يديه عدد من القراء الممتازين •

ومما هو جدير بالملاحظة انه لم يبق بين طلاب الملا عثمان على قيد الحياة سوى استاذنا[1] الشيخ محمد صالح الجوادي ـ أمد الله في عمره ـ وقد

---

(١) درست عليه القرآن الكريم بين عامي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦م في مدرسة القرآن في جامع الرابعية بالموصل •

روى لي أخباراً مستفيضة عن شيخه فسألته قائلاً : لقد سمعتم تلاوة الملا عثمان ومن بعده تلاوة شيخ قراء مصر المرحوم محمد رفعة[1] فايهما يجيد القراءة أكثر ؟ فقال : الملا عثمان يجيد القراءة أكثر ولكنه لم يتفرغ لها ·

وهنا يبرز الوجه اللامع من مواهب عثمان الموصلي فهو قد نبغ في نواحٍ عديدة من الفنون والآداب رغم انه لم يتفرغ لاية ناحية معينة وربما كان شأنه أعظم بكثير فيما لو تفرغ لناحية أو اثنتين ·

وكان الملا عثمان عند وجوده في الموصل على صلة مع علمائها الابرار الى جانب وجهائها وحكامها · وكان معاصراً له آنذاك عالم الموصل وشيخها الافضل وسيد علمائها المرحوم الحاج محمد الرضواني[2] ولم يكن بعيداً عنه فقد كانا زميلين في الدراسة على العالم العلامة الشيخ صالح الخطيب (الذي مرت ترجمته في بحث سابق في أول الكتاب) · وقد أكرما استاذهما الخطيب بعد وفاته عند منح الاجازة العلمية لولديه فاقام الشيخ الرضواني حفلة التخريج هذه ، وقرأ الشيخ عثمان في هذه الحفلة فاجاد فيها اجادة مشهودة ·

---

(١) الشيخ محمد بن محمود رفعة : ولد عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) في القاهرة وهو اشهر قراء مصر وأعلمهم بمواضع الوقف من الآيات · وقد كف بصره وهو في السادسة من عمره · وامتاز بابداع في الترتيل واتقان للتجويد وعذوبة في الصوت · وتوفي عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) ـ الاعلام للزركلي ـ ·

(٢) الشيخ الحاج محمد الرضواني : ولد عام ١٢٦٩هـ (١٨٥٢م) من عائلة دينية ، ونشأ على التقوى · وهو علم من أعلام الموصل العارفين ، واستاذ من علماء المسلمين ، وركن من أركان الاصلاح فيها · وقد تخرج على يده كبار علماء الموصل في مدرسته الرضوانية التي انشأها في مسجده · وعكف فيها على التدريس · واشتهر بالعلم والتقى وانتهت اليه الرئاسة بين العلماء · وكان حجة زمانه ومقصداً للناس · وقد حصل على اجازته العلمية من الشيخ صالح الخطيب · وتوفي عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) ـ تاريخ علماء الموصل ـ ·

ومن العلماء الاعلام الذين توثقت صلة الملا عثمان بهم عالم الموصل العلامة المجدد الشيخ عبدالله النعمة[1] فقد كان معجباً بالشعر الصوفي الذي ينظمه الملا عثمان حتى انهما اذا كانا في مجلس وجادت قريحة الملا عثمان بابيات من الشعر ، كان الشيخ عبدالله النعمة يسارع الى تدوينها . فكان رحمه الله يحفظ الكثير من اشعار الملا عثمان . وبوفاة الشيخ النعمة ضاع قسم كبير منها مما كان يكتبه على قصاصات ذهبت مع الزمن . وما عدا ذلك فقد كانت بينهما مودّة تعبر عنها الرسائل والاشعار التي كانت متبادلة بينهما في مناسبات كثيرة ، نذكر من ذلك الشعر الذي نظمه المرحوم الشيخ عبدالله النعمة مهنئاً به الملا عثمان الموصلي بعودته من استانبول بعد غياب طويل وهو قوله :

لقد عاد للأهلين من كان نائيا   وأحيا لكلٍ عند رؤيته القلبا
فحقٌ لهم ان يزدهوا بهجةً كما   بمقدم عثمان قد ازدهت الحدبا

كما ان كثيراً من الكتاب والادباء والفنانين واصحاب المجالس التي كانت معروفة في الموصل والمنتشرة في كل مكان في المدينة كانوا يحفظون الكثير من الاخبار الشيقة عن الملا عثمان الموصلي حضروها وشاهدوها بانفسهم أو سمعوها عن غيرهم وغير قليل منهم من دونها في كتاب أو صحيفة وكان أكثر الذين اتصلت بهم من معمري الموصل من يخبرني بطرائف

---

(١) الشيخ الحاج عبدالله النعمة : ولد عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) وكان عالماً شهيراً ومجاهداً صابراً ، وحجة عصره في العلم والمعرفة ، ومن العلماء العاملين القلائل الذين انجبتهم الموصل . وكان مثالاً في الاخلاق والتقوى . وقد اتبع سيرة السلف الصالح لتنزيه الدين الحنيف مما دخل اليه من بدع وشوائب . واشتغل في الخطابة والوعظ والتدريس . وعهدت اليه ادارة المدرسة الفيصلية الدينية في الموصل ، ورئاسة جمعيتي الشبان المسلمين والبر الاسلامية . كما اشتغل بالتأليف ومارس نظم الشعر . وتوفي عام ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م) ـ تاريخ علماء الموصل ـ .

ونتف من الاخبار عنه فمنهم من حضر مجلسه ومنهم من شاهد احدى مداعباته مما يؤكد ان الرجل لم يكن منعزلاً عن الناس بل كان يعيش معهم في كل اوقاتهم في ليلهم ونهارهم وفي أفراحهم واحزانهم حتى انه اذا اخذ سبيله في اسواق المدينة وجد الناس بين مسلم عليه أو مستفهم منه عن مسألة أو مازح معه . وكان على الاكثر يقوده أحد تلاميذه أو أي شخص آخر من اصدقائه أو عارفيه واذا ترك وحده تحرشوا به للملاطفة فكانوا يسرقون كيسه أو سبحته أو عصاه أو حذاءه ليختبروا مقدار معرفته لهم فتثور عندئذ ثائرته ويخرج به الامر أحياناً الى سب نفسه والتهور عليهم ثم سرعان ما يثوب اليه رشده فيستغفر الله ويتوب اليه . وكانوا لا يفعلون ذلك اذا كان أحد معه خوفاً من ان يوشي هذا بهم اليه . وهكذا فقد كان الملا عثمان بين الناس مالئاً دنياهم وشاغلاً لهم اينما حل أو رحل حتى ترك في نفوسهم أجمل الاثر ورسم في اذهان من كانوا اطفالا في ذلك الوقت صورة لا تمحى عندما اصبحوا كباراً حتى يكاد يكون ذكره في كل مجلس وعلى لسان كثير من الادباء والعلماء والمعمرين بصورة عامة . فقد حدثني الشيخ عمر النعمة انه حضر مرة صلاة الجمعة في جامع (باب العراق) في الموصل وكان الامام في الصلاة هو الملا عثمان الموصلي فصعد المنبر على قفاه (لم يستقبل المنبر عند صعوده بل صعد وقد ادار ظهره اليه) فخطب في الناس خطبة طويلة وكان ذلك بعد رجوعه من استانبول .

وهكذا فهناك الكثير مما يذكره الناس الذين لا يزالون على قيد الحياة عن هذا الشيخ أما الذين ادركهم الموت فانهم يحدثوننا بكتبهم وصحفهم اخباراً أكثر واوفى حتى ان الذين استطعت ان اجمع من مؤلفاتهم حقائق ومعلومات عن الملا عثمان كان عددهم كبيراً لا يستهان به وقد ذكر بعضهم حوادث حضروها بانفسهم كما ان بعضهم نقل اخباراً معينة عن الآخرين .

وممن كتب عن الملا عثمان واتى باخبار مستفيضة عنه الشاعر المرحوم

اسماعيل فرج[1] الذي يعتبر من ابرز مريديه في الشعر ونظم التاريخ وكانت له معه ذكريات جمة وعلاقة وثيقة في السنين الاخيرة من عمره وكان يرافقه كثيرا وقد نقلنا عنه قسماً كبيراً من أخبار الشيخ في هذا الكتاب ونتركه ليحدثنا في ما يلي عن قسم آخر من ذكرياته واخباره معه مما نشره في مجلة الجزيرة الموصلية .

قال المرحوم الاستاذ اسماعيل فرج : كان أول اجتماع عرفت الملا عثمان فيه في مسجد الشيخ شمس الدين في الموصل وكان البحث في ذلك الاجتماع يدور حول الادب والشعر . ولما علم انني اعاني نظمه استنشدني من شعري فانشدته ثم قال لي رحمه الله الا تؤرخ بالشعر ؟ فقلت اجل انني لم اترك حادثة تعنيني الا وسجلتها بتاريخ حتى الكتب التي ادرسها على الاشياخ . ومن ذلك انني بعد ان انهيت دراسة كتاب (شرح الشمسية) في المنطق وبدأت في قراءة كتاب (مختصر المطول) للسعد على شيخنا العلامة الجليل عثمان الديوهجي[2] ارخت ذلك ببيتين هما :

شمسية المنطق مذ اتقنتها وفي قضاياها احطت الخبرا

---

(1) اسماعيل حقي فرج : شاعر من شعراء الموصل وعالم من علمائها ولد عام ١٨٩٢م ونال اجازته العلمية على الشيخ ابراهيم الحاج ياسين وقد ساهم في الحركة الوطنية في العراق في زمن الاحتلال وعمل على تغذيتها بالاناشيد القومية الحماسية . واشتغل بعدئذ بالتدريس في مدارس الموصل وله عدة مؤلفات وديوان من الشعر . وكانت وفاته عام ١٩٤٨م . (تاريخ علماء الموصل) .

(2) الشيخ عثمان الديوهجي : ولد سنة ١٢٨٧هـ (١٨٦٨م) في الموصل ودرس على عدد من علماء عصره واشهرهم الشيخ الحاج محمد الرضواني الذي نال اجازته العلمية عليه عام : ١٣١٩هـ ثم انصرف للوعظ والتدريس واشغل رئاسة مجلس ادارة الاوقاف في الموصل ثم عين قاضياً لبغداد عام ١٣٤١هـ ثم قاضياً لمدينة الموصل ثم عضواً في مجلس التمييز الشرعي السني في بغداد . وكان واسع الاطلاع في العلوم الدينية ويمارس نظم الشعر بكثرة . وقد توفي عام ١٣٦٠هـ (١٩٤١م) . (تاريخ علماء الموصل) .

بدأت في مطول السعد وقـــد   اضحى لنا تاريخـه (مختصرا)

فسرّه رحمه الله تعالى ان كان التاريخ في هذين البيتين مختصراً (أي كلمة واحدة) وانه اسم للـكتاب الذي باشرت قراءته (مختصر المطول) وانه يطابق كلمة (مطول) • وقال لي ان هذا من عجائب التاريخ ومنذ ذلك الحين قويت أواصر الصداقة بيننا وكنت اغلب الليالي اجتمع به فـي دار المرحوم ابراهيم دلال باشي نتناشد فيها من بدائـع الاشعار ما يوقظ بفواح عطره احداق النرجس والنوار •

ثم قال : وفي صيف ١٣٣٧هـ كنت قد سافرت الى بغداد وعندما اردت مقابلته لاول مرة بعد ان فارقته نحو ست سنوات وددت ان اختبر ذاكرته اهي على ما كانت عليه من القوة أم اثرت عليهـــا السنون[1] فاضعفتهـــا ؟ فسلمت عليه فرد عليّ السلام بأحسن منه وقال : موصلي والله ، وصوت أعرفه جيداً فاخبرني من انت ؟ فقلت له : انا كلي خبر ولئن احتجت الي ان اعرفك بنفسي اني اذن لنكرة عندك • فقال رحمه الله تعالى : تقدم تقدم انت ولدي اسماعيل • ومد يده الي وصافحني ثم همهم قليلاً وانشدني ابياتاً نظمها في تلك الساعة تحتوي تاريخ قدومي الى بغداد وزيارتي له وكان بيت التاريخ فيها قوله :

ومذ الى بغداد جئت ارخوا   (بالخير اسماعيل واليمن قدم)

وقد بقيت في بغداد شهراً كاملاً وانا كل يوم اتشرف بزيارته رحمه الله تعالى •

هذا ما رواه الشاعر المرحوم اسماعيل فرج عن ذكرياته مع الملا عثمان وكم هنالك من ذكريات عند كثير من الادباء عن هذا النابغة فلم يدونهـــا اصحابها وذهبت واياهم الى العدم وفي طي النسيان دون الاستفادة منها •

---

(١) كان ذلك قبل وفاته باربع سنوات مما يدل على انه بقي محتفظاً بقوة ذاكرته حتى ذلك التاريخ على الرغم من تقدمه بالعمر وثقل وطـأة السنين عليه •

العودة الاخيرة الى الموصل

احتفاء الموصليين بالملا عثمان عند عودته الاخيرة الى بلدته الموصل • معرفته لاصدقائه القدامى وتذكره للاشخاص الذين كان قد تركهم أطفالاً • نزوله في مسجد شمس الدين الذي اتخذه تكية له • مغادرته الى بغداد قبيل الحرب العالمية الاولى • تنصيبه شيخاً لقراء بغداد • ثورة العشرين ومساهمته فيها • اعتكافه في جامع الخفافين •

في صبيحة يوم الاربعاء لعشر بقين من رجب سنة ١٣٣١هـ الموافق الخامس والعشرين من حزيران سنة ١٩١٣م قدم الشيخ الملا عثمان الى الموصل عائدا من استانبول بعد ان توجه اليها قادما من دمشق وحلب وبعد ان امضى في ذلك سنين طويلة وهو غائب عن موطنه فوجد مدينة الموصل ملأى بذكره ، نشوى باخباره وقد تهيأ اهلوها لاستقباله ووجد اهلا واخوانا واصدقاء ومعجبين به يتقاطرون لزيارته والسلام عليه فكان يرحب بهم

ويحسن استقبالهم ويخاطبهم باسمائهم متذكرا اياهم الواحد تلو الآخر فهو يعرفهم جيد المعرفة بمجرد السلام عليه او الترحيب به مع انه قد فارقهم منذ سنين طويلة فكان احدهم طفلا فيسلم عليه شاباً فيسأله عن ابيه وعمه وخاله ومن يعرفه من اقاربه ويستفسر منه عن حالهم وعمن توفى منهم ومن بقي على قيد الحياة ٠

وقد لاحظ القوم عليه تغيرا في لباسه الذي اصبح يلبسه هو وابنه الحاج احمد فقد كان كل منهما يرتدي البزة المولوية وهي جبة عريضة واسعة الاكمام فوق السراويل ويضع على رأسه قلنسوة كالطربوش الطويل مصنوعة من الوبر صفراء ترابية اللـون خاصة بجماعة المولوية ولم يكن اهل الموصل قد رأوا هذا اللباس من قبـل فعجبوا له كثـيرا واثار ذلك تساؤلهم مما يدل على ان المولوية لم تكن معروفة في الموصل في هذا العصر قبل مجيء الملا عثمان فهو من المؤسسين للمولوية في الموصل بشكلها الاخير الذي كان معروفا في زمن العثمانيين ٠ وقد كان الملا عثمان قبل ذلك يلبس جبة اعتيادية كالتي يلبسها رجال الدين في الوقت الحاضر ويضع على رأسه عمامة صغيرة بيضاء ٠

ثم انه عندما وصل الموصل قصد تواً مسجد شمس الدين في محـلة باب العراق والذي اصبح الآن واقعا على شارع الفاروق الذي قامت بلدية الموصل بفتحه ماراً بالمسجد المذكور وهو المسجد نفسه الذي قام الملا عثمان بتجديد عمارته لاتخاذه تكية مولوية في الموصل ولا تزال القطعة الرخامية التي كتبت بمناسبة تجديده موجودة على باب المسجد في الوقت الحاضر وعليها البيتان التاليان المنقوشان على الرخامة وهما من نظم الملا عثمان(١) :

---

(١) مجموع الـكتابات المحررة في ابنية الموصل ـ تأليف نيقولا السيوفي ٠

عن باب شمس الدين لا تبرحـوا   واستفتحوا منـه فنعم السموح
خطـت يـد الهمـة تاريخـه   ببـاب شمس الديـن راق الفتوح

وان فكرة اتخاذ هذا المسجد تكية بل ان فكرة تشييد التكايا بصورة عامة واكثارها في البلاد الاسلامية هي من وحي الشيخ ابي الهدى الصيادي وبمؤازرة الحكومة العثمانية وتشجيعها وذلك انها كانت تسعى في أواخر ايامها للقضاء على الاضطرابات وعدم الاستقرار السياسي في البلاد الخاضعة لها واحلال الهدوء والسكون فيها وذلك بنشر الطرق الصوفية وبناء التكايا والزوايا في طول البلاد وعرضها لكسب الانصار والسيطرة على الشعب بواسطة الدين وكان الشيخ ابو الهدى الصيادي الرجل الصوفي المقرب من السلطان عبدالحميد هو المشرف على شؤون الصوفية في الدولة وفي الوقت نفسه كان صديقا للملا عثمان فمد له يد المساعدة لتعمير المسجد فضلا عن ان الشيخ الصيادي كان يعطف على مدينة الموصل بصورة خاصة وذلك لوجود ضريح جده فيها وهو السيد محمد خزام الثاني الصيادي الرفاعي بن السيد نورالدين والذي نزل الموصل شاباً فبنى فيها جامعاً سمي باسمه يقع على طريق باب السراي ثم توفي بعدئذ في الموصل عام ٩٨٥هـ (١٥٧٧م) فدفن في ذلك الجامع الذي بناه وهو جامع خزام الحالي[١] . ولا عجب ان الشيخ ابا الهدى الصيادي قام ايضا بتجديد عمارة جامع خزام هذا عن طريق ارسال مساعدة مالية مع بعض ابناء الموصل الذين تولوا الاشراف على التعمير .

ثم ان الملا عثمان بقي في المسجد المذكور اياما وقد توافد الناس عليه لزيارته والترحيب به ولكن المرحـوم الحاج ابراهيم بن الحاج مصطفى دلال باشي ابى الا ان ياخذه الى دار له اخلاها ليقيم فيها معززاً مكرماً

---

(١) جوامع الموصل للديوهجي .

بدلا من اقامته في المسجد وتقع هذه الدار في محلة باب السراي عند ابتداء شارع الثورة فطفق الناس من اهل العلم والادب والموسيقى يزورونه في تلك الدار ليلا ونهاراً حتى اوشكت ان تكون مدرسة علمية او ندوة ادبية •

وبعد ان استقر به المقام بدأ يعيد الزيارة للعلماء في مدارسهم والوجهاء في مجالسهم ورجال الطرق الصوفية في زواياهم وكلهم مسرور بزيارته ، مبتهج بمشاهدته ، معجب بادبه ، معترف بفضله ، مغترف من معينه • ثم بدأ الناس يسمعون في الليالي وقد خيم السكون على المدينة صوت الملا عثمان تحمله النسمات على اجنحتها تتصاعد من المجالس والمساجد والدور فيهرعون الى مصدر الصوت ليحضروا الحفلة ويسمعوا الملا عثمان ويروه عن قريب وهو يردد موشحاته وانغامه ويقرأ قصائده التي ينظمها ويلحنها بين حين وآخر فكانت تلك المحلات تغص بالمعجبين به وبفنه وأدبه •

وظل الملا عثمان مقيماً في الموصل مدة ينعم بالتقدير والتكريم الى قبيل الحرب العالمية الاولى التي التهب اوارها عام ١٩١٤ حيث توفي مضيفه الحاج ابراهيم فلم يلبث الملا عثمان ان قرر السفر الى بغداد بعد مدة قصيرة من وفاة مضيفه المذكور[١] وكان سفره الى بغداد في جمادى الاولى ١٣٣٢هـ الموافق نيسان ١٩١٤م • وفي بغداد نزل عند ولده فتحي بن عثمان الذي كان يسكنها من قبل • وقد لقي من الترحيب الذي ابداه له اهل بغداد ما كان يلقاه كل مرة يأتي فيها الى هـذه المدينة مع تنصيبه شيخاً للقراء في مدرسة جامع المرادية[٢] وقد تخرج عليه في المدرسة المذكورة بعلم تجويد

---

(١) كانت وفاة الحـاج ابراهيم دلال باشي في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ الموافق ١٧ آذار ١٩١٤م •

(٢) جامع المرادية : من جوامع بغداد الشرقية الشهيرة وهو منسوب الى مراد باشا والي بغداد ٩٧٣ ـ ٩٨٥هـ (١٥٦٦ ـ ١٥٧٨م) وقد جددت عمارته في سنة ١٣١٩هـ • (دليل خارطة بغداد المفصل ـ جواد وسوسه) •

القرآن كثير من افاضل المقرئين في بغداد واقتبسوا من علمه الزاخر وفنه المتجدد .

وفي بغداد ايضا كان قبلة لانظار الناس فكثير من رجال الدولة وعلمائها وادبائها قاموا بزيارته وتباروا في تكريمه . كما ان كثيراً من اهل الموصل كانوا يتعنون السفر الى بغداد لزيارته وملازمته في رواحه وغدوه اياماً واسابيع .

ولا يـزال الناس يذكـرون زيارة الملك فيصل الاول وجعفر باشا العسكري له في غرفته التي كان يقيم فيها في جامع الخفافين[1] الشيء الذى يدل على اهتمام المسؤولين في الدولة به لا سيما بعد تشكيل الحكومة الوطنية في العراق . وكان الملك فيصل الاول قد تعرف عليه في الحجاز على زمن والده الشريف حسين عندما كان الملا عثمان يقوم بالحج والزيارة في مكة . وفي مرة من هذه المرات التي سافر فيها الى مكة القى الملا عثمان قصيدة في مدح الشريف حسين فانعم عليه هذا بسيف من سيوفه تقديراً له . وكان الملك فيصل الاول عند مجيئه الى العراق يقوم بزيارات لبعض علماء العراق ووجهائه للتعرف عليهم وتوثيق العلائق معهم .

ثورة العشرين ومساهمة الملا عثمان فيها :ـ

وفي الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى والتي كان خلالها الملا عثمان يقيم في بغداد بدأ ملك العثمانيين بالزوال وبدأ حكمهم ينحسر عن

---

(١) جامع الخفافين : أو مسجد الحظائر ويقع في محلة الحظائر المجاورة له والتي هي من محلات بغداد القديمة وقد شيدته السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله ، وأم الناصر لدين الله والتي توفيت عام ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) . ويقع هذا الجامع حالياً على ضفة نهر دجـــلة اليسرى جنوبي المدرسة المستنصرية متصلاً بسوق الخفافين . (دليل خارطة بغداد المفصل ـ جواد وسوسه) .

العراق بمجرد اندحارهم في الحرب المذكورة واخذت وجوه الانكليز الحمراء تظهر في شوارع بغداد والمدن العراقية الاخرى معلنة عن ارتباط العراق بمواثيق واحلاف مع بريطانية ٠

ثم اخذ الانكليز يماطلون العراقيين بمنح الاستقلال لهم محاولين تحطيم الامل الذي يراود شعب العراق والعرب عامة بالوحدة مع البلاد العربية الاخرى لا سيما وان العرب في العراق لم يجاربوا العثمانيين لاجل الانضواء تحت حكم استعماري مماثل ٠ ولما لم يجدوا عند بريطانية نية في منح العراق استقلاله التام واعطائه حق تقرير مصيره عقدوا العزم على اعلان الحرب ضد الانكليز فجردوا الحسام بوجههم وانطلقوا بثورة عارمة هي الثورة العراقية او ثورة العشرين التي قامت في ٣٠ حزيران عام ١٩٢٠م مبتدئة من قرية الرميثة في لواء الديوانية تحت قيادة بعض رؤساء العشائر العربية في العراق وقسم من الضباط والسياسيين العرب العراقيين فهاجموا ثكنات الجيش البريطاني الذي تجمعت قطعاته في العراق قادمة اليه من بعض البلدان المجاورة والتي تكبدت في هذه الحرب خسائر كبيرة وقتل من هذا الجيش كثير من ضباطه وجنوده ٠ وقد استمرت الحرب ستة اشهر بعد ان شملت العراق كله ٠ وابلى الثوار بلاءً حسناً يذكره التاريخ على مر الاجيال ٠

وكان الشعب العراقي كله قد اشترك في هذه الحرب فمضى الكثير من ابناء العشائر وابناء المدن للتطوع في صفوف الثوار المقاتلين بينما انصرف غيرهم من الادباء والشعراء في التحريض على محاربة الانكليز ٠ وكان الملا عثمان على رأسهم قد شمر عن ساعد العمل والكفاح من اجل تحرير بلاده حيث انطلق يخطب بالناس في جامع الحيدرجانة[1] في بغداد ويحثهم على

---

(١) جامع الحيدر خانة : جامع شهير في بغداد ويقع قريباً من باب المعظم ، أسسه والي بغداد داوود باشا ١٢٣٢ – (١٨١٧ – ١٨٢٦م) ٠ ولعله نسب الى حيدر چلبي الشاهبندر كما جاء في كتاب عيون اخبار الاعيان

المطالبة بالاستقلال ومحاربة الانكليز ، فكان له بذلك موقف وطني مشهود لا سيما عندما أخذ يقيم احتفالات حماسية بحجة قراءة المولد النبوي ، تنشد فيها القصائد الوطنية وتلقى الخطب المحرضة ، ثم يرتقي الملا عثمان المنبر ليرتجل الاشعار الحماسية والخطب المؤثرة فيترك الناس على اشد من الجمر (كما وصف ذلك احد الادباء المعاصرين له) ويفعمهم حماساً واندفاعاً للذود عن حياض الوطن . وكان الناس يحيون معه الليالي هكذا في مظاهرات وطنية صاخبة استمرت طوال مدة الثورة تقريباً . ولم يتأخر عنها هذا الشيخ او يتقاعس فيها يوماً من الايام رغم عجزه وعاهة بصره .

وكادت السلطات الاستعمارية تفقد صوابها لهذه الاجتماعات السياسية التحريضية التي تعقد تحت ستار الموالد النبوية وباسم الدين مما اضطرها في احدى الليالي الى مداهمة جامع الحيدرخانة المذكور حيث قامت سيارتان مصفحتان بمهاجمة الجامع واخذتا تطلقان النار في الفضاء لارهاب المتظاهرين وتخويفهم فأصيب من جراء ذلك رجل بطلق ناري اصاب مقتلا منه . فاكبر الاهلون موته وشيّعوه الى مرقده في اليوم التالي بمظاهرة وطنية كبرى تحدوا فيها السلطة[1] . ثم تطورت الامور أكثر من ذلك ، ووجدت السلطات الاحتلالية ان هذه المواليد النبوية والاجتماعات الدينية هي الشرارة المسببة لانفجار شعبي كبير . فاصدر قائد الجيش الانكليزي المحتل لبغداد والحاكم فيها امير اللواء (ساندرز) بلاغاً الى اهالي بغداد بتاريخ **٢٣** آب **١٩٢٠** يمنع فيه عقد حفلات المولد النبوي ويهاجم القائمين بها ، واصف اياهم (بالمفسدين) و (المحركين الذين يضلون العوام) ويهددهم باشد العقاب . وهذا هو نص البلاغ المنشور في جريدة العراق في العدد **٦٣** في **٢٣** آب **١٩٢٠** وهو :

---

(١) الثورة العراقية الكبرى ـ للسيد عبدالرزاق الحسني ـ .

(منشور الى أهالي بغداد)

اعتاد بعض المفسدين ، منذ شهر رمضان ، ان يعقدوا المواليد في ليالي الجمعة ، ظاهراً لمقاصد دينية ، ولكن في الحقيقة لتهييج أفكار الناس ضد الحكومة ، ولبث روح الاختلاف . ولكي لا يجد الناس مجالاً لسوء الظن بأن السلطة المحتلة تريد الممانعة في المذاكرة العلنية الحرة فهي اجتنبت الى الآن المداخلة في هذا الموضوع . ولكن كما تبين في ان الحرية الممنوحة قد اساؤوا استعمالها ، وأن المحركين يضلون العوام بضلال مبين بجسارتهم ومذكراتهم في مجالس المولود ، فلهذا وجب علينا ان نعلن ان انعقاد المواليد ممنوع وان انعقاد الاجتماعات لمقاصد سياسية تعرض القائمين بها لاشد العقاب ، الا اذا كان ذلك مطابقاً للقانون العثماني في هذا الموضوع وباذن من حاكم بغداد العسكري والسياسي . ولقد شكل مجلس عرفي للنظر في مثل هذه الجرائم التي تقع ضد الامن العام . أهـ

ساندرز : أمير اللواء

القائد المنوط بالدفاع عن بغداد

عن القائد العام للجيوش المحتلة في العراق

وبعد ان انتهت الحرب بالاتفاق على تسوية بين الطرفين ، انصرف الناس الى اعمالهم وشؤونهم . واعتكف الملا عثمان في غرفته الصغيرة في جامع الخفافين . وفي هذه الفترة التي كان يقيم خلالها في الجامع ، كان ابنه الحاج احمد موجوداً في بغداد ويسكن داراً في المنطقة المعروفة بفضوة عرب قرب باب الشيخ ، وكان والده الملا عثمان يقيم احياناً عنده ثم يترك الدار ليذهب الى غرفته في جامع الخفافين للاعتكاف فيها مفضلا اياها على سكنى الدار ، غير عابيء بتوسلات أولاده واحفاده للبقاء معهم كأنما قد احس بدنو اجله فقرر العزلة عن الناس والتفرغ للعبادة . فكان اهل بغداد

قليلا ما يلتقون به في الازقة الضيقة وقد امسك بيده غلام صغير يقوده من الدار الى الجامع ، او يعود به بعد ايام الى دار ابنه ليزور احفاده الصغار واولاده • وهذا الغلام هو حفيده علي بن الحاج احمد الذي كان يقطع به تلك المسافة الطويلة بين الجامع والدار مشياً على الاقدام حتى اذا ما وصل به الى الجامع ادخله الى غرفة صغيرة تقع على يسار الباب الرئيسي فيستقر فيها ليقضي وقته منصرفاً الى الصلاة والعبادة ، حتى حانت منيته وادركه الموت وهو في غرفته هذه •

نهاية الدرب

نهاية الرجل العبقري • وفاته في بغداد ورثاؤه • أولاده وأحفاده وعائلته • تكريمه وما هو واجب الفن تجاه علم من أعلامه •

وكان الملا عثمان في السنوات الثلاث الاخيرة من عمره يشعر بضعف شديد وانحطاط في صحته وقواه فلم يعد يتمتع بذلك النشاط الذي كان يعهده من قبل واصبح ظهوره الى المجتمعات والمجالس قليلاً ونادراً • واضحى سيره بطيئاً متكلفاً متثاقل الخطوات ولم يعد يراه الناس كما اعتادوا ان يروه وسط كل مجلس وفي مقدمة كل اجتماع • كما أخذ يتحلل من قيود المجتمع مكتفياً بثوب خفيف يلبسه على جسمه ، ورمى بالقلنسوة الطويلة المولوية الى الابد مستعيضاً عنها بالكشيدة وهي العمامة الموشاة الملتفة على رأسه دون ما نظام وكان يظهر بها للناس في الاسواق والمحافل عندما يضطره أمر ما الى الخروج اذ يشعر بانها اخف من غيرها على الرأس •

وفي اليوم الثالث عشر من جمادي الآخرة من عام ١٣٤١هـ المصادف ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٢٣م وهو يوم الثلاثاء وكان يوماً شديد المطر

كثير الرعد والبرق فجعت بغداد بوفاته ، وكأن السماء هـي الاخـرى شاركت بنحيبها ودموعها في نعي الرجل الذي نذر نفسه أكثر من نصف قرن لخدمة القرآن وتدريسه وترتيله وخدمة الوطن والادب والفن .
وكان البرد يومذاك شديداً حيث انزوى كل انسان في داره فلم يسمع كثير من الناس بموته الا بعد دفنه[1] . وقد دفن في مقبرة الغزالي الواقعة في الجهة الشرقية من بغداد . وكان لوفاته وقع سيىء في نفوس الموصليين والبغداديين بصورة خاصة والعراقيين والعرب بصورة عامة ، حتى قال بعض الادباء بانه كادت تنقرض بموته شعبة عظيمة من الفنون الجميلة الاسلامية في العراق وقد رثاه الشاعر البغدادي عبدالرحمن البناء[2] بقصيدة عدد فيها مناقبه ومزاياه الحميدة مؤرخاً بها عام وفاته[3] فقال :

رحلت والصدر بالايمان ملآن ... في ذمة الله شيخ العلم عثمان
قضيت نحباً ولم تبلغ مني أمل ... في النفس قد شفها وجد واشجان
فغبت عنا وفي الاحشاء منك أسى ... وعن عيون الورى ما غاب انسان
كنت الوحيد بما اوتيت من سدد ... فقصرت عنك في الآداب أقران
على المنابر تدعو أمة عجزت ... عن شرح قصتها شيب وشبان
كأنما القوم قد ماتت عواطفهم ... حيث المنابر بعد القوم عيدان
كملت عهد شروط المجد في أدب ... جم فلم يبق في الآداب نقصـان

(1) توفي في ذلك اليوم نفسه عالم آخر هـو الشيخ محمد سعيد الدوري من افقه أهل زمانه في العراق . كما توفي في العام نفسه وهو عام ١٩٢٣م الموسيقار سيد درويش كأنه على موعد مع استاذه الملا عثمان .

(2) الشاعر عبدالرحمن البناء : شاعر بغدادي معروف مارس الشعر بمختلف أنواعه . وكان ينظم القصائد السياسية والوطنية بكثرة وسطع نجمه بعد ان طبع ديوانه . وقد ساهم في الثورة العراقية عام ١٩٢٠م بخطبه وقصائده الحماسية حتى لقب بشاعر الاستقلال ثم اقعده المرض وتوفي عام ١٩٥٥م . (بغداد القديمة) .

(3) (تاريخ علماء الموصل ج١ ـ ومجلة اليقين ج١٦ لسنة ١٩٢٣) .

وبعدك المولد اختلت قواعـــده ... وبات طرف هداه وهو وسنان

يامن على الدين قد جلت مصيبته ... عليك مولد منشي الدين حزنان

بغداد بعدك يا عثمان شـــاكية ... خسرانها ، ومماة العلم خسران

بمثلك الدهر لم يسمح واين له ... شيخ به شـــمرت للمجد فتيـــان

كنت المبرز في ميدان صنعتـــه ... وللصناعات والآداب ميـــــدان

بك المحافل في التجويد حافلة ... تصغي اليك من الاشهاد آذان

قد عشت سبعين والافكار منك لها ... ادراك كهلٍ له دين وايمـــان

وهبت لله عمـــراً منـــك شيّعه ... ذكر وصوم وتسبيح وقـــرآن

حـــزم وعـــلم وآداب ومعرفـــة ... ونغمـــــة واهازيج والحـــــان

أهل العلوم وارباب الفنون هم ... صحف وانت لتلك الصحف عنوان

فقه ونحو وصرف وائتلاق حجا ... ونظم شعر به العلياء تـــزدان

مدحت أحمد طه المصطفى مدحاً ... كأنما انت يا عثمان حسّـــــان

ورحت في حلل الغفران مندرجاً ... نادى: لك الفوز في الجنات رضوان

في جنة الخلد قد أمسى نؤرخه ... (مع ابن عفان وسط الورد عثمان)

ومضى عثمان الموصلي كأنه لم يكن وقد ترك من الاولاد اثنين[1] هما الحاج أحمد وفتحي ولـكنهما لم يسلكا سبيله في العلم والادب ولم يمنحـا موهبة واحـدة من مواهبه الـكثيرة • وعـــرف ابنـــه الحـــاج أحمد في بغداد بانه صاحب دكان لبيع العـــباءات في السوق الواقع بـين المستنصرية وسوق الخفافين • وبعد ان توفي هذا ترك حانوته لابنه الحاج

(١) يذكر مؤلف كتاب أعلام الادب والفن ان الملا عثمان (نكب في حياته بموت فلذة كبده الوحيد يونس وهو في ريعان شبابه وبقي متألمـــاً لموته طول عمره) وهذا غير صحيح • كما انه لم يتأكد لنا من أي مصدر آخر ان للملا عثمان ولداً اسمه يونس •

علي[1] الذي امتهن مهنة ابيه في بيع العباءات الصوفية .

ثم انك اذا بحثت عن احفاد الملا عثمان وابناء اخوته واحفادهم لم تجد الا عدداً من ابناء اخوته وقد امتهنوا اشغالاً حرة ، وعدداً من البنات من ذريــة الملا عثمان . ثم توفي كبار العائـلة وبقي صغارهـا وكان ابرز شخص بينهم تستطيع ان تتعرف عليه وتتحدث اليه عن ذكريات الملا عثمان هو حفيده الحاج علي بن الحاج أحمد فهو رئيس العائـلة واكبر فـرد فيها ، وهو الغلام الذي كان يرى قبل نصف قرن في ازقة بغداد وقد امسك بيد جده لياخذه من الدار الى الجامع . لذلك عقدت العزم على زيارتـه في دكانه والتعرف عليه لاكمل ما ينقصني من المعلومات عن الملا عثمان .

وفي يوم من أوائل عام ١٩٦٤ توجهت الى ذلك السوق القديم الذي يتصل بالمدرسة المستنصرية[2] والذي رصفت على جانبيه دكاكين باعـة

---

(١) كان للحاج أحمد عدد من الاولاد غير ابنه هذا غرقوا مع أمهم في نهر دجلة عندما كانوا في قارب متوجهين من الموصل الى بلدة حمام العليل للاصطياف فيها . وقد نقل لي هذا الخبر أحد الادباء الافاضل ، ولا نعلم مدى صحته وهل ان ابنه علي هذا لم يكن معهم وقتئذٍ أم انه من زوجة أخرى غير تلك التي غرقت .

(٢) المدرسة المستنصرية : بناها الخليفة المستنصر بالله وقد انتهى من تشييدها عام ٦٣١هـ (١٢٣٣م) . وكانت آنذاك في آخر سوق الثلاثاء واصبحت أكبر وأهم المعاهد العلمية في العصر العباسي . وقد جعل فيهـا أربعة أواوين لتدريس الفقه على المذاهب الاربعة ، وفي كل ايوان استاذ يدرس عليه اثنان وستون طالباً . وكانت الدراسة فيها مجانية اضافة الى ان كل طالب من طلابها يمنح دينارين ذهباً عدا الطعام الذي يقدم لهم ويطبخ في مطبخ خاص . وفي المدرسة دار للـكتب تحوي كتباً نادرة مرتبة ومبوبة حسب مواضيعها ليسهل على المطالعين مراجعتها . ويلحق بالمدرسة مارستان (مستشفى) يشرف عليه طبيب لمعالجة طلابها وكذلك حمام خاص بهم وتعتبر بناية المدرسة المستنصرية من أجمل الآثار المتخلفة عن العصر العباسـي وأهمها . وهي لا تزال قائمة على ضفة دجلة حتى الآن . (دليل خارطة بغداد المفصل ـ جواد وسوسه) .

العباءات وأنا اسأل عن دكان الحاج علي حتى عثرت عليها في منعطف السوق ووجدته جالساً في دكانه الصغيرة على كرسي واطيء وكان كهلا في الستين من عمره ممتلىء الجسم يلبس البدلة والسدارة فرحب بي عندما علم قصدي من زيارته وطفق يحدثني عن جده المرحوم بعض الاحاديث التي لم تكن جديدة علي • ثم انطلق بي ليريني جامع الخفافين والغرفة التي كان يقيم فيها جده الملا عثمان في الجامع المذكور والتى زاره فيها الملك فيصل الاول • وكانت الغرفة مغلقة لم يشغلها أحد من بعده • ثم خرجنا فمضينا لزيارة المقبرة التي دفن فيها وزيارة قبره هناك • وعندما وصلنا مقبرة الغزالي وجدناها ارضاً واسعة فمشينا فيها مسافة طويلة بين الحفر والاتربة ونحن نتفقد شواهد القبور لنستدل على قبر الملا عثمان وبعد حين وصلنا الى قبر اشار اليه الحاج علي بانه قبر جده الملا عثمان ويكاد يكون قبراً مدروساً وقد تآكلت شاهدته حتى لم تظهر حروف الاسم واضحة وكان بالقرب منه وعلى بعد بضع خطوات قبران بجانب بعضهما هما قبرا ابنيه فتحي والحاج أحمد •

وعند عودتنا طلبت من الحاج علي ان يهيىء لي بعض الوثائق والتصاوير الموجودة لديه عن الملا عثمان فوعدني بذلك على ان آتيه بعد اسبوع • غير انني انشغلت عن مراجعته وتأخرت عليه أكثر من عشرين يوماً • وعندما ذهبت اليه في دكانه بعد تلك المدة وجدت فيها شخصاً غريباً يخبرني بمرارة وأسى ان الحاج علي قد توفي الى رحمة الله منذ بضعة أيام• وهكذا انقطعت بوفاته آخر حلقة من سلسلة يمكن الوصول بها الى اخبار اخرى عن هذا الشيخ النابغة •

وكان الحاج علي رحمه الله نصف متعلم فهو لا يستطيع الكتابة الا بصعوبة ويكاد لا يعرف شيئاً عن جده أكثر مما يعرفه غيره • ولم استطع أن احصل منه من المعلومات الا على الشيىء النزر فمن ذلك ما اخبرني

به من أن زوجة الملا عثمان كان اسمها خيتة بنت الحاج رزوقي وبعض المعلومات عن نسبه • وقد عجبت ان يموت الملا عثمان ولم يترك من ابنائه واحفاده من يكاد يشابهه بذكائه ومواهبه •

وبوفاة الملا عثمان طويت صفحة من صفحات الماضي العريق ، وطفئت شعلة وهاجة يتصل نورها بنور الحضارة العربية الزاهرة • ومضى الرجل الذي كان شاغل الناس حقبة من الزمن ، والذي كانت تتجسد فيه صورة صادقة للنضوج الفكري عند العرب في زمن العباسيين وغيرهم عندما يدرس احدهم العلوم كلها فيحيط بها من كل جانب فتلقاه عالماً شاعراً فيلسوفاً أديباً لا يريد ان يتخلى عن ناحية من نواحي المعرفة •

غير ان مما يؤسف له ان يصبح الرجل منسياً لا يكاد يعرفه الا من عاصره ، ولا تهتم بآثاره الفنية والعلمية اية جهة مسؤولة ما خلا مرة سمعت فيها احدى الاذاعات العربية تحتفل بذكرى وفاته ، وكذلك تقديم احدى اغانيه في حفلة المؤتمر الدولي الثاني للموسيقى العربية المنعقد في بغداد في ١٩٦٤/١١/٢٨ ، وهي وان كانت بادرة طيبة من المشرفين على اقامة حفلة المؤتمر بتقديم هذا الفنان الخالد لاعضاء المؤتمر الا انها غير كافية لتخليد هذا الفنان الموصلي الذي اعاد امجاد ابراهيم واسحق ، والذي رفع راية الفن في العراق في زمن تسود فيه الفوضى والجهل والتعصب الاعمى ، وهو لا يناسب ابداً ما قامت به مصر لتكريم فنانيها لا سيما سيد درويش الذي اقامت له التماثيل واطلقت اسمه على الشوارع والمؤسسات الحكومية واصدرت الطوابع التي تحمل صورته مبالغة منها في تكريمه •

وقد سمعنا مؤخراً ان فرقة شعبية للانشاد تشكلت في الموصل بتاريخ ٦٤/٥/٢٠ وهي تحمل اسمه وتعمل على احياء فنه وتخليد ذكراه • وقد قامت الفرقة المذكورة باحياء عدة حفلات في مدينة الموصل وحفلات اخرى خاصة بمديرية الاذاعة والتلفزيون ونرجو ان توفق هذه الفرقة الى تحقيق

الهدف الذى تشكلت من اجله • كما نرجو ان تحذو حذوها الجمعيات الفنية والمؤسسات الحكومية التي تعمل في الحقل الفني آملا ان تلتفت الى هذه الهمسة كل من وزارة الارشاد ودار الاذاعة والتلفزيون ومعهد الفنون الجميلة لتتبنى فكرة تكريم هذا الفنان العبقري واحياء فنه بالشكل الذي يليق به •

فهرست المصادر والمراجع

١ ـ الاعلام ـ خيرالدين الزركلي ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٢ ـ اعـــلام الادب والفن ـ أدهم الجندي ـ دمشق ١٩٥٤ .

٣ الاغاني ابو الفرج الاصفهاني ـ بيروت ١٩٥٦ .

٤ ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ـ اسماعيل باشا ابن محمد أمين ـ تركيا ١٩٤٥ .

٥ ـ بغداد القديمة ـ عبدالكريم العلاف ـ بغداد ١٩٦٠ .

٦ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ـ ابن الاثير ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٧ ـ تاريخ جامع الامام الاعظم ـ الشيخ هاشم الاعظمي ـ بغداد ١٩٦٤ .

٨ ـ تاريخ العراق بين احتلالين ـ المحامي عباس العزاوي ـ بغداد ١٩٤٩ .

٩ ـ تاريخ علماء الموصل ـ أحمد محمد المختار ـ الموصل ١٩٦١ .

١٠ ـ تاريخ الموسيقى العربية ـ هـ . ج . فارمر ـ القاهرة ١٩٥٦ .

١١ ـ تاريخ الموصل ـ سليمان الصائغ ـ مصر ١٩٢٣ .

١٢ ـ التحفة الايقاظية في الرحلة الحجازية ـ سليمان فيضي ـ .

١٣ ـ التراث الموسيقي في الموصل ـ محمد صديق الجليلي ـ الموصل ١٩٦٤ .

١٤ ـ الترياق الفاروقي ـ عبدالباقي العمري ـ النجف ١٩٦٤ .

١٥ ـ الثورة العراقية الكبرى ـ عبدالرزاق الحسني ـ صيدا ١٩٥٢ .

١٦ ـ جوامع الموصل ـ سعيد الديوه‌جي ـ بغداد ١٩٦٣ .

١٧ ـ خطط الموصل ـ أحمد الصوفي ـ الموصل ١٩٥٣ .

١٨ ـ الدر النقي في علم الموسيقى ـ أحمد بن عبدالرحمن الموصلي ـ بغداد ١٩٦٤ .

١٩- دليل خارطة بغداد - مصطفى جواد وأحمد سوسه - بغداد ١٩٥٨ •

٢٠- زكريا أحمد - صبري أبو المجد - القاهرة •

٢١- سيد درويش حياته وآثار عبقريته - الدكتور محمود أحمد الحفني - القاهرة •

٢٢- الطرب عند العرب - عبدالكريم العلاف - بغداد ١٩٦٣ •

٢٣- العقود الجوهرية في مدائح الحضرة الرفاعية - أحمد عزة باشا العمري - مصر ١٣٠٦هـ •

٢٤- الغناء العراقي - حمودي الوردي - بغداد ١٩٦٤ •

٢٥- الفخري في الآداب السلطانية - ابن الطقطقي - بيروت ١٩٦٠ •

٢٦- الفهرست - ابن النديم - القاهرة - مطبعة الاستقامة - •

٢٧- فهرس المخطوطات المصورة - فؤاد سيد - القاهرة ١٩٥٤ •

٢٨- مجلة التراث الشعبي - بغداد ١٩٦٤ •

٢٩- مجلة الجزيرة - الموصل ١٩٤٧ •

٣٠- مجلة لغة العرب - بغداد ١٩٢٦ •

٣١- مجلة اليقين - بغداد ١٩٢٣ •

٣٢- مجموع الكتابات المحررة في ابنية الموصل - نيقولا السيوفي - بغداد ١٩٥٦ •

٣٣- المغنون البغداديون والمقام العراقي - الشيخ جلال الحنفي - بغداد ١٩٦٤ •

٣٤- مقدمة ابن خلدون - عبدالرحمن ابن خلدون بيروت - مطبعة الكشاف •

٣٥- الموسيقى الشرقي - محمد كامل الخلعي - القاهرة •

٣٦- الموسيقى الشرقية والغناء العربي - قسطندي رزق - القاهرة •

٣٧- الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان - المحامي عباس العزاوي - بغداد ١٩٥١ •

٣٨- نكت الهميان في نكت العميان - صلاح الدين خليل الصفدي - مصر ١٩١١ •

فهرست التراجم والتعليقات والنبذ الواردة في الهامش والمتن

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

فهرست الاعلام

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

فهرست المدن والاماكن

نينوى ١٤

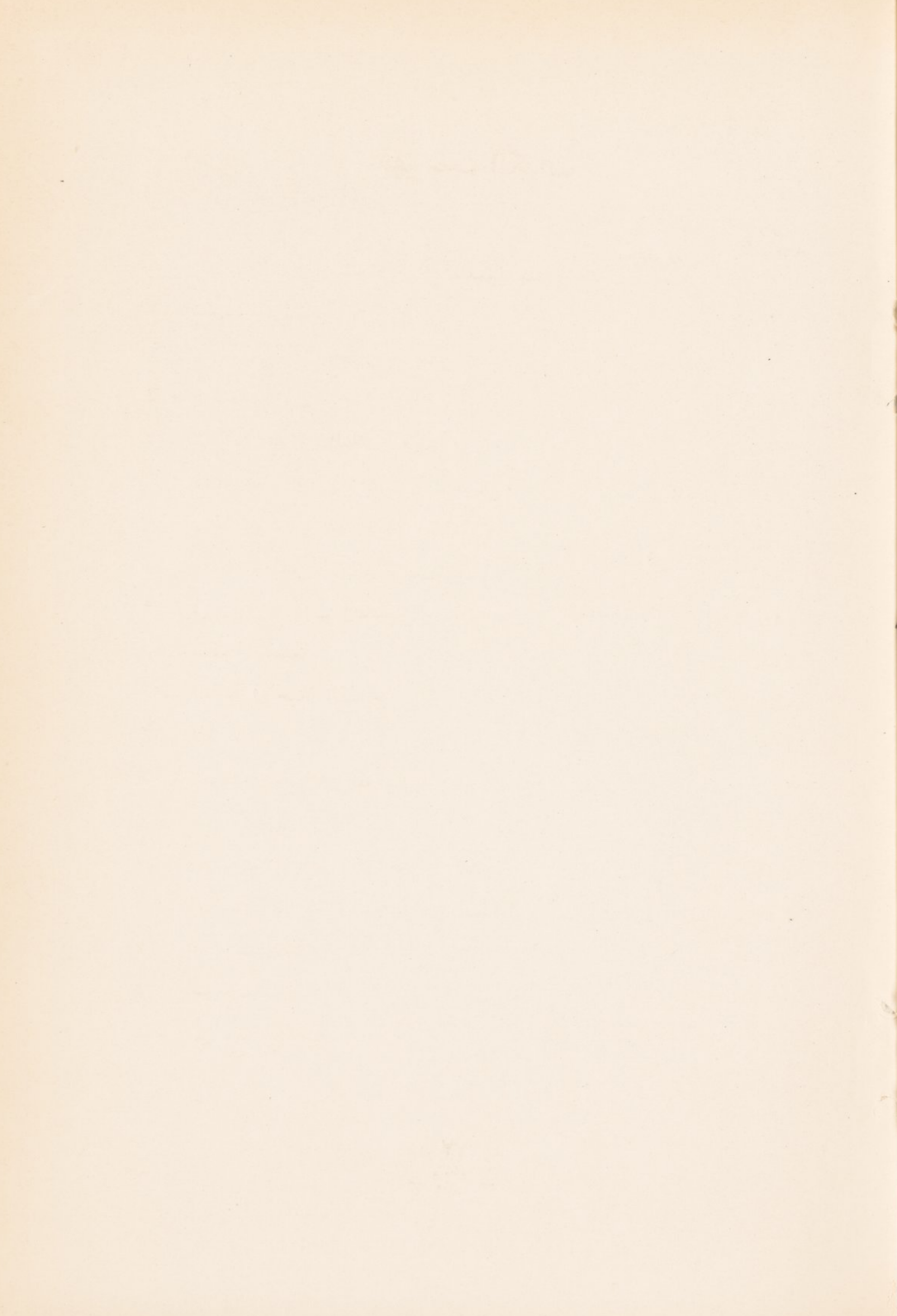
- هـ -

الهند ٥٥

- ي -

اليمن ٤٣

فهرست الكتاب



سيصدر قريباً للمؤلف

كتـــاب

تاريخ الكـــوت